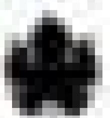
اعتراف منتصف الليل

رواية

جورج دوهاميل



الكتاب الثالث

چورج ديهامل

اعتراف منتصف الليل

تعريب

شكرى محمد عياد

تقديم

لا أعرف كاتباً صور محنة الفردية فى هذا العصر كما صورها چورچ ديهامل . ولك أن تقول : محنة الفردية ، أو محنة الفرد ، حسبما يحلو لك من رغبة فى التجريد الفلسفى أو التخصيص الإنسانى ... وأنت مصيب على الحالين ، فهى محنة يعانيها الأفراد المثقفون اليوم ، لا فى فرنسا وحدها بل فى كل بلد مسته الحضارة الصناعية والإنتاج بالجملة . ومصدر هذه المحنة إحساس هؤلاء المثقفين ذوى الذكاء اللامع أو الإحساس المرهف أو الخيال الوثاب ، بأن هذا المجتمع الحديث لم يعد محتاجاً إلى ذكائهم اللامع ولا إلى إحساسهم المرهف ولا إلى خيالهم الوثاب ، بل لعله ينظر إلى هذه الأمور التى كانت تعدها الإنسانية من قبل ميزات نظرة الشك والارتياب ، لأنها أصبحت تعد فى دينا العمل عوائق ومعطلات ..... وهم يلاقون من ذلك عناء غير قليل ، حتى ليضطرون إلى إحدى اثنتين : إما أن يستبدلوا بذواتهم الحساسة ذواتاً أخرى أشبه بالآلة فى انتظامها ودقتها ، وأكثر انطباقاً على ما يتطلبه المجتمع الحديث ، وإما أن ينسوا أنهم أفراد ، ويلقوا بأنفسهم إلقاء فى جيش الساخطين على هذا المجتمع ، المعدين العدة لتغييره وفق ما يتراءى لهم أنه الحق والصواب . وهم على الحالين لا يستطيعون الاحتفاظ بفرديتهم ، وقلما ينجون من هذا القلق الذى ينوشهم من كل جانب ، وقلما يصلون إلى حالة من السلام النفسى الذى ينشدونه . وأكثرهم ينطوون على أنفسهم ، ويجترون إحساساتهم ، ويطعمون أحلامهم وآلامهم ، وربما وجدوا فى الألم لذة أكبر ، لأنه لا يلوح لهم بأشياء مستحيلة ، ولا يعرضهم لخيبة قاسية .

هذه الفرقة من الناس ، إذاً ، ظاهرة بارزة فى الحياة الإنسانية لعصرنا الحاضر، يعنى بها علماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة ، والأخلاقيون ، والأدباء ، والفنانون ولعل مما يزيد عنايتهم بها أن هذا الفريق من الناس هم الجمهور الأكبر من قراء الأدب والفلسفة وأهل الفكر ، ومتذوقى الفن ، فكأن رجال الفكر والفن إذ يعالجون مشاكل هذا الفريق من الناس إنما يعالجون مشاكلهم هم أنفسهم فى نطاق أوسع ، وكأن هذا الجمهور إذ يطالع مايكتبه له الأدباء والمفكرون إنما يطالع نفسه بين السطور .

كتب چورچ ديهامل سلسلة من خمس قصص تدور كلها حول محنة الفردية فى العصر الحديث ، أى حول التنافر بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد ومجتمعه . وابتدع فى هذه القصص شخصية « سلاڤان » ، وهى شخصية لا تقل حياة ولا صدقا

ولا عمقاً عن شخصية « هملت » أو « دون كيشوت » . هى شخصية ذلك المثقف المرهف الحس الذى يلفظه المجتمع الحاضر ، على أن ديهامل لا يتخذ بطله من أولئك المثقفين ذوى الثقافة العالية المنظمة ، وإنما هو رجل من عامة الشعب ، لم ينل ما اصطلح الناس على تسميته بالثقافة العالية ولا الثقافة الثانوية ، ولكنه قرأ كثيراً وفكر كثيراً . يقول لصديق : « إننى فقير ، وقد كنت فقيراً دائماً ، فدرست كما يدرس الفقراء ، أعنى أننى درست دراسة فقيرة . وقد آلمنى ذلك وبخاصة فى السن التى يتألم فيها المرء لمثل هذه الأمور . ثم أخذت أثقف نفسى بنفسى ، وعلى قدر استطاعتى ، فأنا أعلم اليوم أكثر مما يعلمه غالبية البورجوازيين فى مثل سنى ، ولكن الراجح أنى لم أتعلم هذه الأشياء بطريقة منظمة كما تقول . ومن ثم لا يعدنى الناس مثقفاً . وأصدقك القول إننى مستتى العدوى من أفكار الناس عنى فأصبحت أشك أنا أيضاً فى ثقافتى . إنها لثقافة طيبة لا تخلو من رسوخ وغنى ، ولكنها ليست ثقافة «أصيلة» . لا ضير ! إننى مثابر على القراءة . » .

وهو يقضى سحابة نهاره فى بعض تلك المكاتب التى تؤوى عشرات أو مئات من طبقته يؤدون أعمالا تافهة . وهو مشغوف بالموسيقى . غير أنه يقول : « ولكنى حين أجاهد آلتى لا يبدو على أننى أفهم شيئاً مما أوقعه ، على حين أن أودين مثلا – وهو ينفخ فى الناى أيضاً – أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان ! » .

وقد تسأل : لماذا جعل ديهامل بطله مثقفاً عامياً وفنانا عاجزاً ، ولم يجعله رجلا ممتازاً فى ثقافته أو فنه ؟ ألا يكون فى هذه الصورة الأخيرة أصدق تمثيلاً لمشكلة المثقفين فى هذا العصر ؟ ولكننى أذكرك بأمرين اثنين : أولهما أن ديهامل لا يعالج مشكلة المثقفين الممتازين بوجه خاص ، بل مشكلة كل من يتغلب فيهم جانبا الفكر والوجدان على جانب العمل ، وطبيعى ألا يبلغ هؤلاء جميعا رتبة العبقرية . والأمر الثانى أن القصة والأدب على العموم قد اتجها وجهة شعبية منذ ظهر المذهب الواقعى فى الأدب واتخذ موضوعاته من الحياة العادية – حياة الناس العاديين . لم يبق الأدب تصويراً لحياة الأبطال وصراعهم ، بل أخذ أشخاصه من زحمة الحياة العادية التى تعج بشتى صنوف المآسى والمساخر . ولعل هذا هو الأثر الخالد للمذهب الواقعى فى التراث الأدبى الإنسانى ، فما أظنه قد أصبح فى استطاعة الأدب فى حاضره أو مستقبله أن يترفع عن مشاكل جماهير الناس مهما تكن طبقتهم أو ثقافتهم أو نحلتهم ، ولا أن ينتزع العواطف الإنسانية من مجالها الطبيعى ، ليضعها فى إطار

من العظمة المصنوعة . وقد ظهر المذهب الطبيعي وعميده زولا بعد المذهب الواقعي ، فزاد هذا الاتجاه بالأدب نحو الشعب قوة ووضوحاً . فديهامل محافظ إذاً على تراث الأدب الفرنسي الخالد ، وهو في الوقت ذاته دقيق الإحساس بالمشكلة التي يعالجها حين يختار بطله نكرة من النكرات ، أو كما يقول هذا البطل عن نفسه : « رجلاً لا يختلف في شيء عما ألفه الناس ، رجلاً يشبه كل الرجال إلى حد مخيف ! » .

ظهرت قصتنا Confession de Minuit – وهي الأولى من مجموعة سلاڤان – سنة ١٩٢٠ ، ثم تلاها «رجلان» Deux Hommes سنة ١٩٢٤ ، و«يوميات سلاڤان» Journal de Salavin سنة ١٩٢٦ ، و« نادي ليونيه » Le Club des Lyonnais سنة ١٩٢٩ ، وأخيراً : « كما هو » Tel Quen Lui-meme سنة ١٩٣٢ .

حلل ديهامل في القصة الأولى عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه ، وبين واقع الفرد وآماله ، وبين أفكاره وأعماله . صور ذلك كله منعكسا على ذهن سلاڤان ، فهو لا يقص أحداثا ، بل أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث ، فهي أحداث بالنسبة لصاحبها ، وهي مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت تقرؤها .. أحداث هذه القصة لا تعدو أن سلاڤان يفصل من عمله التافه إثر حادثة يحسبها الناس حمقا وشذوذاً ويراها هو عملا ضرورياً يرد إليه ثقته بأنه إنسان يعيش بين أناسيّ . وليس بعد ذلك إلا البطالة والتشرد والفاقة ، وأحلام الحرمان ، وأوهام القلب الوحيد .

وفي القصة التالية « رجلان » نرى سلاڤان الصديق ... نراه في ضوء تلك الصلة النفسية العميقة التي تكشف من أسرار النفوس ما لا تكشفه الأفكار ولا الأحلام ولا الأوهام . وصديقه لا يشبهه في شيء من الأشياء . إذا كان سلاڤان مثال الرجل الذي لا ينسجم فكره وعمله فإدوار مثال الرجل الذي يقيس فكره على قدر عمله . وإذا كان سلاڤان مثال الرجل الساخط على وجوده فإدوار مثال الرجل الراضي عن وجوده . وإذا كان سلاڤان مثال الرجل الخائب الذي يزداد انحداراً كل يوم فإدوار مثال الرجل الناجح الذي يزداد كل يوم صعوداً . إدوار هو على الجملة صورة حية للمجتمع الحديث . هو الرجل الذي تخضع حياته لنظام لايحيد أو لا يكاد يحيد . هو الرجل الذي يترجم جميع أفكاره إلى أعمال ، وجميع دوافعه ونوازعه إلى مصالح . هو الرجل الذي تنسجم رغباته مع واقع الحياة ، حتى لتحار : أيهما يستجيب للآخر ... أهو يكيف وجوده طبقاً لواقع حياته ، أم هي أحداث الحياة تنساق وراء رغباته ؟ يعرف سلاڤان من مطعم كانا يترددان عليه ، وكأنه يحس فيه ضعفا وعجزاً عن المضي في تيار الحياة الزاخر ، فيود لو يسنده بذراعه القوية ، ليزداد التذاذاً بقوته .... ويقبل سلاڤان – بعد

تردد – هذه اليد الممدودة إليه ، ويبذل له الصديق من جاهه وماله ، ويقبل سلاڤان هذه الهبات أيضا ، ولكن على حساب كرامته وكبريائه ، حتى إذا ضاق صدره بعد سنين طوال من هذه الصداقة غير المتكافئة ، ثار على ما ألقى فيه من عبودية ، وفارق صاحبه فراقاً غير جميل .

والقصص الثلاثة الأخيرة تصور صراع سلاڤان لتحقيق فرديته ، فإنه لم يحدد بعد مطلبه من الحياة ، وإنما كانت نفسه أشبه بصندوق رنان ، كل عمله أنه يضخم الذبذبات التى تصل إليه من الخارج . ولكنه قد بدأ يحس نزوعاً إلى إكمال نفسه ، فصاحبه يقول له قبل أن يفارقه : « ما بك ؟ » فيجيبه : « بى كل ما ليس بى ... أشياء لا تستطيع أن تمنحنى إياها يا إدوار ... السلام . السعادة . روح خالدة . الله » .

ويعود سلاڤان إلى وحدته المريرية اللذيذة ، ويستدبر أعوامه الأربعين ، وقد شغل بتحديد وجهته فى الحياة . فهو يقول عن حياته فى تلك الأعوام : « أربعون سنة ولم أفعل شيئاً ! أعنى أننى لم أقض شيئا ولا أتممت شيئا .. ولو مت هذا المساء ما استحققت أن يذكر اسمى على لسان ، ولا أن تبقى صورتى فى ذاكرة . ليتنى لا أموت هذا المساء ! دعاء أرفعه إلى الفضاء ، ولنقل إننى أسأل القدر ، ما دمنا لا نعرف غيره ؛ فما أظن أن الدعوة الحارة لا تجد صدى ولو لفظت فى الصحراء » . وهو ينظر فى أمره كله ويقلبه على جميع وجوهه ، حتى إذا استقبل عامه الأول بعد الأربعين كان قد استقر عزمه على أن يتأله ، أو يكون قديسا ، فهو يبدأ « يومياته » ليسجل خطواته فى هذا السبيل .

ولكنه لا يؤمن بالدين . فهو لا يريد أن يكون قديسا كقديسى الكنيسة ، بل يريد أن يحيا حياة القديسين ، يريد أن ينعم بلذة الفضيلة ، يريد أن يرفع الفضائل النفسية – فى ذاته هو – إلى أوج من العظمة . وهو يرى أنه بهذا يفى بحاجة من حاجات العصر : يفى بحاجته إلى قديسين ، فقد كان لكل عصر قديسوه ، ولكنه لا يرى لهذا العصر قديسين .

ويأخذ فى جهاد نفسه جهاداً منظماً ، يدونه فى « يومياته » ، وكلما خرج من معركة من هذه المعارك النفسية وجد نفسه مريضاً أو مستغفلاً أو محتقراً .. ووجد أنه لم يبلغ من فضائله المنشودة شيئا . ذلك لأن قديسى العصور القديمة كانوا يمارسون فضائلهم معتمدين على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، كانوا يعتقدون أن الحق فى جانبهم وأن الله معهم ، فكان فى أفعالهم ثقة واطمئنان وجلال . أما هو فلا يؤمن بقوة

خارج نفسه ، ولا يبحث فى جهاده إلا عن نفسه ، ففضائله تبدو سخيفة مضحكة إذ يعوزها الوسط الذى لا تعيش وتنشط إلا فيه ، وكأنما هو رجل يحرك شفتيه بالغناء فلا يتجاوز غناؤه حنجرته .

ويتمنى سلاڤان أن يؤمن ، ويرتاد الكنائس ، ويعترف ، ولكنه لا يحس فى هذه التجارب كلها شيئاً من الصدق ، إنما هى حركات وأقوال لا تصدر من قلوب قائليها ، ولا تصل إلى قلوب سامعيها . هى أشبه بالبقايا المتحجرة من عصور إنسانية بائدة . ويكتب إلى قس بروتستنتى يسأله النصيحة لروح ضالة ، فيكتب إليه كتابا . موجزاً ذا رقم وتاريخ ، ويحدد له ساعة يلقاه فيها بعد أسابيع ... ويقابله فى مكتب كمكاتب رجال الأعمال ، وإذا هو أمام قس يرشد الأرواح الضالة « بالجملة » ، على طريقة الإنتاج بالجملة ويرد الإيمان إلى النفوس الحائرة بأحدث أساليب التحليل النفسى .

لا يستطيع سلاڤان ، إذاً ، أن يكون قديساً . وتنتهى هذه التجربة الأليمة بمرض طويل فى مستشفى مجانى ، دخله إثر حمى أصابته لأنه قدم معطفه وحذاءه - فى الشارع وفى ليلة من ليالى الشتاء - إلى أفاق لئيم ، لم يجد ما يعطيه إياه فآثر أن يقدم إليه كساءه على أن يحتمل نظرة الشك التى صوبها إليه . ويخرج سلاڤان من المستشفى وقد أكسبته هذه التجربة نوعا من الهدوء ، ولكنه ما زال يبحث ... يبحث بالمعنى المطلق لهذا الفعل ، كما يقول . ويهديه البحث إلى « نادى شارع ليونيه » ، وهو ليس بناد على الحقيقة ، وإنما هو حانوت إسكاف فقير يجتمع فيه بعض الشيوعيين الثوريين الذين يدعون إلى مجتمع جديد ، يجتمعون فيه خفية ليتباحثوا فى مشاكلهم ويدبروا أمورهم ، وإن كنا لا نعرف ماذا يدبرون بالضبط لأننا نراهم بعينى سلاڤان . وليس سلاڤان واحداً منهم وإنما هو فى اصطلاحهم «عاطف» ، وكما يقول أحدهم : «من أولئك المثقفون الذين ينزلون إلى الشعب . طراز ١٩٠٠» . فهم لا يطلعونه إذاً على كثير من أسرارهم ، ولكنه يفهم أنهم يطمحون إلى حياة أسعد ، ويراهم يعيشون عيشة خشنة ، ويعلم أنهم يلاقون ألوان الاضطهاد ؛ ونفسه نزاعة إلى السمو ، ذواقة للألم ، فبينما هو يفكر أن يلقى بنفسه فى تلك النار يعلم من أمرهم مالم يكن يعلم ، فهم ثوريون فنيون ، لا يبالون كثيراً بالفرد ، لأن همهم تغيير المجتمع. عندئذ تنفر منهم فرديته فيقول لهم : إننى لا أسمح لنفسى بانتقادكم وأغلب ظنى أنكم مادمتم مقدمين على هذا الأمر فثم ما يدعوكم إلى ذلك. ولكنكم تستطيعون أن تغيروا مايسمى النظام ، وتستطيعون أن تخلفوا الطبقة الحاكمة ، تستطيعون أن تغيروا كل شئ ولكنكم إذا لم تغيرونى أنا - أنا سلاڤان مثلاً - فإنكم لم تغيروا شيئاً ! » .

فإذا سأله سائل منهم : « ولماذا تلح هكذا فى تغيير نفسك ؟ » أجاب فى صوت خفيض ولكنه واضح يسمعه الجميع : « لأنى .... لأنى جبان . » .

ويعكف وحده على هذه الفكرة يديرها فى نفسه حتى ينتهى فيها إلى نوع من الفلسفة . إنه يريد أن يغير روحه ، ولكن ليس فى ذلك شىء من المغالاة ولا الاستحالة بل إنه تجربة معقولة . فروحه ليست إلا أربعين سنة من العادات والحوادث والأفكار والإشارات والأقوال . إنها الحى الذى يعيش فيه ، والمنزل الذى يسكنه ، وملابسه وأثاث بيته ، وزوجته وأمه العجوز .... إن ما يسميه روحه هو ذلك العالم المألوف الذى يضغط عليه ويخنقه ، والذى يريد هو أن يرفعه عن عاتقه ويطوح به ...

ولكن سلاڤان لا يفارق أصحابه الثوريين حتى يدهمهم البوليس ويقضى ليلة فى السجن ويعود إلى داره فى صبيحة ذلك اليوم ليجد أمه تهلك أسى ....

وكأنما انفسح له المجال لينفذ مشروعه الجديد ، فهو يودع زوجته بخطاب قصير، ويمضى ليجرب أن يكون رجلا آخر غير سلاڤان . وقد تعلم فى هذه المرة إلا يطمح إلى أفعال رائعة .... لن يحاول أن يكون قديساً ، بل يكفيه أن يكون إنسانا يخفف آلام المنكوبين من البشر ، وما أكثرهم . فنراه فى القصة الأخيرة « كما هو » يعيش فى الجزائر باسم « سيمون شافجران » ، وكيلاً لشركة فونوغرافات ، وقد حلق لحيته واستبدل بنظارته المعدنية عوينات ذهبية الإطار ، وأصبح يحظى بإجلال عارفيه لأنه لا يفتأ يضرب الأمثال على تضحيته وإيثاره وحبه للإنسانية . فهو قد أنقذ صبية صغيرة من بين عجلات القطار فى مرسيليا ، وهو قد تبرع بدمه لجريح ، وتطوع لتمريض المصابين بالطاعون ، ثم هو يرعى خادمه « مختاراً » ويعلمه القراءة والكتابة ، ويحاول أن يثنيه عما هو منغمس فيه من قبيح العادات، إذن فقد بدأ يمارس أعمال الخير حقاً ، ولم يعد يجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية ، بل أصبح لأعماله مضمون واضح .

ولكنه على ذلك كله غير راض عما يفعل ! لماذا ؟ إنه غير مجرد من كل تفكير جماعى ، فلعله يرى أن طيبته وإنسانيته لا تستطيعان أن تخففا شيئاً من هموم البشر الثقيلة ، ولكن ضيقه يرجع إلى سبب آخر أهم من هذا ، فهو لم يقدم على هذه التجربة الكبيرة إلا لينقذ الإنسانية فى نفسه أولاً ، بأن يكون إنسانا خيراً فيما يأتى وما يدع ، عن سليقة وعادة لا عن تفكير وإرادة . وهو يرى أنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، فهو يرتد ثانية إلى نفسه ، ويصارح صاحباً له : « كيف يستطيع المرء ألا يكون إلا ما هو ؟ وكيف يحاول أن يكون غير ما هو بغير أن يصيبه الجنون ؟ » .

هو إذا لم يتقدم خطوة منذ فكر أن يغير روحه ، ولكنه يتعلم شيئاً واحدا : يتعلم أن « العمل الطيب إنما هو ثمرة تفكير يوازن ويختار . أنه النتيجة الثابتة لصراع باطنى كبير . » وتدخل هذه الحكمة على نفسه شيئاً من الهدوء ... فهو يستطيع إذاً أن يصل إلى السلام النفسى الذى ينشده عن طريق هذا الصراع الباطنى الموجه دائما نحو غرض طيب .

وتأتى نهاية سلاڤان فى عمل من هذه الأعمال الطيبة .

قتل خادمه مختار بائعاً إيطالياً برصاصة مسدس ، وكان سلاڤان يستطيع – بشىء من حضور الذهن – أن يمنع الحادث ، ولكنه لم يفعل ، واعتصم الخادم بقبو المنزل فسار إليه سلاڤان يضرع إليه أن يخرج ويعده بأن يدافع عنه ، وإذا بالخادم يرديه بمسدسه .

عمل من أعمال الطيبة . عمل يودى بصاحبه دون جدوى ولكنه يأتيه بالسلام النفسى الذى ينشده ، لأنه انتصار على تردد النفس وجبنها ، ومواجهة للجهل والظلام والشر ، ولأنه لطف ورحمة ، ولأنه عفو ومغفرة ؛ وتلك هى الفضائل النفسية التى جاهد سلاڤان ليبلغها ، فليكن عزاؤه إذ لم يحظ بها فى حياته ، أنه أحسها فى مماته ، وليكن عذره إذ لم يبلغ السلام النفسى الذى ينشده ، أنه دفع حياته ثمنا له !

* * *

وقد أردت بهذه المقدمة شرحاً وتفسيراً ، ولم أرد نقدا وموازنة . على أنى أكتفى بأن أقول إن سلاڤان الشاب أحب إلىّ من سلاڤان الكهل ، ولعل القارئ يشاركنى فى هذا الحكم ، فإن سلاڤان الكهل أبعد عن الواقع ، وأقرب إلى أن يكون دعاوة لأفكار الكاتب ، وسلاڤان الشاب أروع سخرية وأقل تشاؤما على رغم ما ينتابه من يأس عنيف .

شكرى محمد عياد

- ١ -

أنا لا أكره السيد سيرو ، إنني جد آسف لأني فقدت وظيفتي ، وهي وظيفة طيبة ، ولكنى لا أكره السيد سيرو ؛ فقد كان على حق ، ولست أدرى ماذا كنت أصنع لو كنت فى محله ، وإن كنت أفهم - وياللأسف ! - أشياء كثيرة .

ويجب القول إن السيد سيرو لم يشأ أن يفهم . وكان يلزمنى أن أوضح له كثيراً من الأمور ، ولكنى بعد أن وزنت الأمر فضلت ألا أوضح له شيئاً . ثم إن السيد سيرو لم يدع لى فرصة لأتمالك نفسى ، وأبرر مسلكى . فقد كان محتداً ، ولأقل فى غير مواربة إنه كان غليظاً ، بل كان فظًا . لا ضير ، فليس يخطر ببالى أن أكرهه .

أمـا السيد جاكوب فالأمر معه مختلف، فقد كان بوسعه أن يفعل شيئاً من أجلى، وقد رآنى أعمل خمس سنوات ، كل يوم ، فى الصباح وفى المساء ، وهو يعلم أنى لست امرءاً خارقاً للعادة ، إنه يعرفنى ، أى أنه - فى أرجح الرأى - لا يكاد يعرفنى . على كل حال ! كان يستطيع أن ينطق بكلمة - بكلمة واحدة ، ولكنه لم ينطق بهذه الكلمة ، ولست ساخطاً عليه لذلك ، فإن له زوجة وأولاداً ، وسمعة لا يستطيع أن يقامر بها .

ولا شك أنى لو قلت ما أعلمه عن السيد جاكوب ... ولكن لينم قريراً ، فلن أقول شيئاً . إنه لم يدافع عنى ، ولم يخلصنى ، ولكنى حين أزن كل الأمور لا أجد فى نفسى كراهية له أيضاً . فهؤلاء الناس ليسوا ملزمين أن يدخلوا فى اعتبارهم أشياء معينة . ولقد كان فى هذا الحادث مجموعة من الظروف الشديدة الإيلام . فلنسلم الآن أنى كنت وحدى المخطئ ، وما دام حال العالم كما تعرف فلأقل إنى كنت مخطئاً . وسنرى بعد ! .

لقد مضى على هذه الحادثة وقت طويل ، ولولا أنك هجت ذكريات سيئة ما حدثتك عنها : ثم إنى قد وقعت لى أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت ، فربما أكون قد نسيت بعض التفاصيل . ويجب أن أنبهك إلى أنى لم أر السيد سيرو غير ثلاث مرات ، وهذا قليل فى مدى خمس سنين ، وهو راجع إلى أن بيت سوك وسيرو بيت عظيم جداً ، فليس فى وسع هذين السيدين أن يعقدا صلات مع موظفيهما الذين يبلغون الألفين . أما عملى أنا فلم يكن له أدنى صلة بالإدارة .

وذات صباح بدأ التليفون يدق . ولست أدرى أأنت من أولئك الذين تؤثر فى حواسهم الأجراس والنواقيس وسائر هذه الأجهزة الجهنمية ؟ أما أنا فأستفظعها . وإن وجود جرس كهربى فى المكان الذى أنا فيه ليكفى لتكدير حياتى ! ولهذا السبب وحده أغتبط أحياناً بتركى الخدمة . إن صليل الجرس ليس صوتاً كغيره من الأصوات . إنه مثقاب ينفذ فجأة فى جسمك ويخرز أفكارك ، ويقف كل شىء حتى نبضات قلبك . إنه شىء لا يؤلف .

هاهو ذا التليفون يدق . فيصغى كل من فى المكتب ، دون أن يبدو عليهم ذلك . وينقطع الصليل فينتظرون .. لست أشد عصبية من غيرى ، ولكن هذا الانتظار أيضاً قطعة من العذاب ، فنحن ننتظر لنعلم أتكون هناك دقات أخرى أم لا تكون .

فإذا كانت دقة واحدة فهى للسيد جاكوب . وإذا كانت دقتين فهما لفلوج السويسرى . أما أنا فأذهب إذا دقت ثلاث دقات . ولابد أن الدقات الثلاث أصبحت لأودين بعد أن ذهبت ، وكان على عهدى ينادى بأربع دقات . أودين ! إنه ليس عصبياً هو أيضاً ، ولكنه لا يكاد يسمع الدقة الأولى حتى يأخذ فى قرض ظفره ، عن غير وعى بالطبع ، حتى أصبحت لإصبعه تلك مجلة متنقلة .

وفى اليوم المذكور دقت دقة واحدة لا غير دقة كبيرة طويلة مستقيمة ، فيها ثقة تؤذى .

فيخرج السيد جاكوب من وراء ستره ؛ يخرج من كنه ، حيث يرابط كحصان السباق فى حظيرته ، ويرفع السماعة ويميل معتمداً برأسه على الحائط ، حيث ترك شعره على مر الزمن بقعة مزيتة .

ويبدأ الحديث وأنا شبه مصغ . وعجيب دائماً أن ترى رجلاً طيباً يحادث العدم ويبتسم له ويتلطف إليه . رجلاً طيباً يحدق فجأة إلى الدهان البنى على الحائط وكأنه يرى شيئاً يثير الدهش .

على أن السيد جاكوب لم يبتسم فى ذلك اليوم ، ولم يتلطف ؛ فقد ارتبك منذ سمع الكلمات الأولى ثم علاه الاحمرار ؛ ثم أغضى وجعل يتأمل المدفأة الكهربائية القابعة فى ركنها شتاء كأنها كلب صغير ساخط .

أما أنا فكنت أبرى قلماً ، وغنى عن البيان أنى كنت أكسر سنه بين لحظة وأخرى . وسمعت السيد جاكوب يدمدم : ولكن ياسيدى ، لكن ياسيدى .... ففكرت

فى أعماق نفسى « إن أعاد « لكن ياسيدى » هذه فلسوف أنهض وأصفعه صفعة تصك رأسه بالحائط ! » .

وأنا دائماً أحدث نفسى بأشياء كهذه . والواقع أنى أمرؤ شديد الهدوء وأنى لا أكاد أفعل شيئاً من هذه الأشياء التى أحدث بها نفسى . وأنت تدرك أنى لم أكن لأصفعه ، ولكنى لم أزل أكسر سن قلمى وأوسخ أطراف أصابعى . وذكرنى السيد جاكوب بأولئك الوسطاء الروحانيين الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتى ، والذين يخلعون عليها – آخر الأمر – نوعا من الحياة . فقد كانت تسمع – حين يصمت – ضوضاء خشنة ، كأنها آتية من آخر الدنيا أميز فيها – قليلاً قليلاً – صرخات صوت مغضب .

وانتزع السيد جاكوب نفسه من الجهاز فجأة، ووضع السماعة متحسساً مكانها، ومخطئاً الخطاف ثلاث مرات قبل أن يعثر عليه . فاستبد بى الغضب ولكنه – بلا شك – لم يبد على . وأفلحت أخيراً فى أن أبرى قلمى برية جيدة ، ومسحت أصابعى فى طرف سراويلى ، حيث لا يظهر أثر الرصاص .

ويمضى السيد جاكوب إلى كنه ، ويفتح صناديق من الورق المقوى ويقرقع بأوراق ثم يصيح فجأة :

– سلاڤان ! تعال هنا برهة !

كنت واثقاً أن ذلك سيحدث . فنهضت طائعاً ، ووجدت السيد جاكوب ينتزع شعرات أنفه ، وهذه عنده علامة قلق شديد . قال لى :

– خذ هذه الكراسة واحملها أنت إلى السيد سيرو . ستجده فى حجرته بالإدارة . قل له إنى أصبت بوعكة مفاجئة .

ووقف عند هذه العبارة ، ومد بصره نحو النافذة وهو يطرف بعينيه ، لينظر إلى شعرة من خيشومه . ثم وضع الشعرة على نشافة وأضاف وهو يكبح رغبة شديدة فى العطس ملأت عينيه بالدموع :

– هيا يا سلاڤان ، أسرع !

ولكى تصل إلى مكتب السيد سيرو يجب أن تمر بأجزاء كثيرة من البناء . وحين تكون النوافذ مفتوحة فى الصيف ، والأبواب منفرجة لتدخل النسيم ، يلمح المرء أقساماً متعددة بعضها فوق بعض ، والرجال وهم يعملون فيها .

فمن هؤلاء من هم غارقون حتى صدورهم فى مكاتب أمريكية مركبة الصنع كالآلات الميكانيكية . ومنهم من يتدلون ذابلين من قمم كراسي عالية بغير مساند ، مدببة كالعصى . وهناك جدران عريضة ، مغطاة بصناديق الأوراق ، تذكرني بمقبرة بيرلاشيز ، ويمر أمامها - على ممرات مرفوعة فى الهواء - صبيان أو ثلاثة ، يبدو عليهم الدأب وكثرة العمل كأنهم نحل العسل. وربما تسمع نقراً كصوت شؤبوب المطر، فتدخل بهواً واسعاً يعزف فيه الكتبة على الآلات كالمجانين ، موسيقى كموسيقى العاصفة ، تتخللها دقات أجراس قصيرة . وترى فى غير هذا المكان كوى تذكرك بالقط المبتل والفراء الغليظ ، فى أسفلها رجال يضغطون سجلات النسخ تحت المكبس ، وهم يقبضون أيديهم بشدة ويعضون على نواجذهم . وبالإجمال كانت اللوحة كلها تمثل مكانا كل ما فيه منتظم ، أى أنها كانت تمثل شيئاً لا يمكن أن يقارن بالفردوس الأرضى .

وفى الدهليز الموصل إلى مكتب السيد سيرو خادم ذو سترة رسمية وجورب أبيض . سألنى عن رقم القسم الذى أعمل به ودفعنى إلى غرفة فسيحة وهو يتمتم :

- إنه ينتظرك .

- فعرفت لتوى حجرة السيد سيرو ، وإن كنت لم أدخلها غير مرة واحدة إذ أنى رأيت السيد سيرو فى المرتين الأخريين فى قسمنا . رأيت جدران الغرفة مغطاة بورق أزرق داكن ، وحواف النوافذ والأبواب مدهونة بلون حلوى العنب ، وفى أحد الأركان نموذجاً « لدراسة وذراية سوك وسيرو » وعليها أوسمة المعارض .

وكان هو هناك ! ولعلك تعرفه وتعرف أنه رجل قوى البنية نوعا طويل القامة ، حليق الرأس ، له شارب منتفش ولحية صغيرة خشنة ، وشعر وخطه الشيب ، وعوينتان تهتزان دائماً لأنهما لا تمسكان إلا بقليل من الجلد تحت الجبين .

نظر إلى السيد سيرو عن عرض ولم يزد على أن قال :

- أجئت من التحرير ؟ وما بال السيد جاكوب ؟

- إن به وعكة .

- كذا ؟ هات !

كل ذلك وأنا واقف تجاه المكتب ذى الطراز الامبراطورى ، لا أدرى أيحسن بى أن أضم عقبى وأشد جسمى أم أنثنى قليلاً كما يقف الجندى وقفة الراحة .

ويجب أن أعترف لك بأنى عشت فى عزلة شديدة فى بيت سوك وسيرو . فكنت أكره المناسبات التى تجبرنى على الخروج عن وظائفى وعاداتى . لقد كان على أن أصحح المكتوبات لا أن أقف أمام أمير من أمراء الصناعة . فلعنت السيد جاكوب وأعددت له بعضاً من تلك العبارات المجوّدة التى ماكنت لأقولها آخر الأمر . وكنت أشعر بقلق فى جسمى الذى لم أكن أدرى ماذا أصنع به . أحسست بعضلاتى تتقلص حتى تؤذى كل منها الأخريات ، وشعرت شعوراً غريباً بأنى أكوّن التواءة مضحكة ضخمة ، لا بوجهى وحده ، بل بجذعى ، ومعدتى وأطرافى ... بجثمانى كله .

ومن حسن الحظ أن السيد سيرو لم ينظر إلى ، بل كان ينقر بأصابعه على الكراسة التى قدمتها إليه ، وهو يكظم فى نفسه غضباً شديداً .

قال فجأة وهو يضغط الصفحة بسبابته ولا يرفع أنفه :

– كتابة رديئة ... لا تقرأ ... ما هذه الكلمة ؟

فخطوت أربع خطوات إليه . وأنحنيت وقرأت بلا تردد وبصوت مرتفع : « تبرعاً » وجعلتنى هذه الحركة بمقربة من السيد سيرو ، وعلى كثب من ذراع كرسيه اليسرى .

وعندئذ لاحظت أذنه اليسرى ، وإنى لأذكرها جيداً ومازلت أرى أن لم يكن بها شىء خارق للعادة . كانت أذن رجل دموى نوعاً ؛ أذناً كبيرة فيها شعر وبقع بلون ثمالة النبيذ . ولست أدرى لماذا جعلت أنظر إلى هذا الغضروف بانتباه شديد لم يلبث أن أصبح مؤلماً . كانت هذه الأذن جد قريبة منى ، ولكن شيئاً لم يبد لى قط بعيداً . كبعدها ، ولا غريباً كغرابتها ، ففكرت : « إنها من اللحم الإنسانى ؛ وثم أناس يجدون لمس هذه اللحمة شيئاً طبيعياً جدًا ؛ وثم أناس يألفون ذلك اللمس . » .

ورأيت فجأة ، وكأنى فى حلم ، صبيًا صغيراً – والسيد سيرو ذو أسرة – صبيًا صغيراً – يطوق عنق السيد سيرو بذراعه . ثم لمحت الآنسة دبيير ، وكانت كاتبة على الآلة، وكانت للسيد سيرو معها علاقة لغط بها الناس. رأيتها منحنية على السيد سيرو ، تقبله هناك ، خلف الأذن بالضبط . وكنت أفكر فى أثناء ذلك :" « أجل . إنها لحم إنسانى . من الناس مَن يقبلونها . هذا طبيعى . » ولست أدرى لماذا بدت لى هذه الفكرة عسيرة التصديق ، وأحياناً مستنكرة . وتتابعت على مخيلتى صورة مختلفة ، حتى انتبهت فجأة إلى أنى حركت ذراعى اليمنى حركة خفيفة ، مقدماً السبابة ، فأدركت على الفور أن بى رغبة فى أن أضع أصبعى هناك على أذن السيد سيرو .

وفى هذه اللحظة زمجر الرجل الضخم وهو ينظر فى الكراسة، وتغير وضع رأسه، فشعرت لذلك بغضب وارتياح ممتزجين . ولكنه عاود القراءة ، فأحسست أن ذراعى قد بدأت تتحرك بلطف .

وقد روعتنى أول الأمر هذه الحاجة من يدى إلى مس أذن السيد سيرو . ثم بدأت أشعر تدريجياً بأن عقلى ينصاع لتلك الرغبة . وأصبح ضرورياً لى – لألف سبب لم أتبينه – أن ألمس أذن السيد سيرو ، وأن أثبت لنفسى أن هذه الأذن لم تكن شيئاً محظوراً ، ولا معدوماً ، ولا وهميا ، وأنها لا تعدو أن تكون لحماً إنسانيًا كأذنى أنا . وفجأة مددت ذراعى بحركة مقصودة ، ووضعت سبابتى بلطف ، هنالك حيث أحببت ، على قطعة من الجلد الأحمر فوق الشحمة بقليل .

سيدى ؛ لقد عذب داميان لأنه طعن لويس الخامس عشر بسكين . وتعذيب إنسان عار كبير لا يمكن أن يسوغه شيء . ومهما يكن فقد أصاب داميان الملك بأذى قليل . أما أنا فلم أصب السيد سيرو بأذى ، ولم يدر بخلدى أن أصيبه بأقل أذى ، ستقول لى إنى لم أعذب ، وفى هذا بعض الصحة .

لم أكد ألمس بطرف سبابتى – وبرقة – أذن السيد سيرو حتى وثب هو وكرسيه إلى الخلف . ولابد أنى كنت شاحباً بعض الشحوب ، أما هو فقد أزرق لونه كما يحدث للمرضى بالصرع حين يشحبون . ثم انقض على درج ففتحه وأخرج منه مسدساً .

لم أتحرك . ولم أتكلم . وشعرت بأنى جئت أمراً إدا. كنت خاوياً، منخوباً ، مطموساً .

ووضع السيد سيرو المسدس على المنضدة بيد ترتجف ، فكان له حين مس المنضدة صوت كصوت الأسنان حين تصطك . وجأر السيد سيرو جؤارا .

ولا أدرى على التحقيق ما حدث بعد . فقد أمسك بى عشرة من غلمان المكتب ، وجرونى إلى غرفة مجاورة ، ونزعوا ملابسى وفتشونى . ثم ارتديت ملابسى ، وجاءنى شخص يحمل قبعتى ، ويبلغنى أن الأمر سيكتم ، على أن أغادر الدار من فورى . وسير بى إلى الباب ، وجاءنى أودين فى الغد بأدواتى الكتابية ، وأشيائى الخاصة .

إليك هذه القصة المحزنة . إننى لا أحب روايتها ، لأنى كلما رويتها استحوذ على ألم لا يوصف .

- ٢ -

ولا يغيبن عن بالك أن قصة سيرو كانت بداية مصائبى .

وحين أقول « مصائبى » لا أريد بذلك على وجه التخصيص تلك المتاعب الكبيرة التى عانيتها لضياع وظيفتى ، بل أعنى فى الغالب الأزمة الروحية التى أتخبط فيها منذ تلك الفترة ، وقد لا أخرج منها أبدا .

وفى ذلك اليوم سبرت وأشرفت على أعماق لم تعد نفسى تستطيع تجنبها . كان هنالك شبه انفطار بين السحب ، وفى لحظة نظرت بجلاء إلى أعمق الأعماق .

عبث أن تسرد بمنطق العقل أشياء لا تخضع للعقل . وإنى لأفضل أن أروى لك الحوادث التى وقعت من بعد . ويجب أن تلاحظ – بهذه المناسبة – أن إطلاق اسم الحوادث على صغائر لا قيمة لها – ككل شىء فى – أمر يبعث على الإشفاق إن أنت تأملته .

وقعت مشاجرتى مع رجال السيد سيرو فى نحو الساعة العاشرة صباحاً . ولم تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى وجدتنى فى الطريق . فلم يبق أمامى إلا شىء واحد أعمله : أن أعود إلى المنزل .

وأنا أقيم مع أمى . وإذ كنت لا تعلم من الأمر شيئاً فيجب أن أشرح لك كل شىء ، وأن أروى لك كل شىء ؛ وهذا أمر لا يطاق ، فالمرء حين يتحدث عن نفسه لا يفرغ أبداً .

إن أمى أرملة . فقد مات أبى قبل أن أتجاوز طفولتى الأولى ، فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عنه . وليعلم أن ذكرياتى الشخصية المحضة قليلة جداً . وقد روت لى أمى – عدا هذه الذكريات القليلة – أربعمائة مرة بعض قصص عن أبى ، حتى أصبحت هذه القصص جزءاً متمماً لذاكرتى ، وأصبحت مضطراً إلى أن أجهد نفسى إجهاداً لأميز هذه الذكريات عن ذكرياتى أنا .. ولكننا سنتحدث عن أبى مرة أخرى .

كنا نقيم دائماً فى مسكننا بشارع بوده فير . وهو ثلاث غرف ومطبخ فى الطبقة الرابعة ، وإنى لأشمئز من هذا المسكن ، ولكننى مع ذلك لا أستريح إلا فيه .

فالمسكن هو المكان الذى ينتهى بأن يصبح أشبه بصورة للكائن . وما علينا إلا أن ندرك ذلك لنرى كل مافيه من كآبة . بل من كآبة لا تحتمل .

كان لأمى دخل ضئيل . وكانت تتوصل بهذا الدخل وبالقليل الذى أكسبه إلى أن تقوم بشئون البيت قياماً حسناً . إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب إنها الشخص الوحيد فى العالم الذى يجعلنى أرغب أحياناً فى أن أركع على ركبتىّ .

أقول لك هذا غير قاصد . على أنه من الخير – ولا شك – لو يركع الإنسان على ركبتيه أمام أحد ما ، ولو يوقره ، ولو يفتح له قلبه ، ولو يفوض إليه كل أمر . وحين أفكر فى البشرية ، حين أفكر فى هذه الكائنات الإنسانية ، لا أنكر عليها ما تقترف من شر ، بقدر ما أنكر عليها أنها لا تتهيأ لأن تتلقى من حين إلى حين رغبتنا المتحكمة فى أن ننبطح أمام الواحد منهم ، ونحتضن قدميه ، ونعاهده على الوفاء ، ونخدمه خدمة العبد أو خدمة الكلب . آه ، نعم ! إنك لا تستطيع أن تنال شيئاً من هؤلاء الوحوش ! إنك تقدم إليهم روحك ملتهبة ، وتنتزعها لهم حية ، فيبدو الشك على وجوههم وكأنهم بائع الكروش حين ينظر إلى نقد زائف .

وأعيد على مسمعيك القول إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب . فهى كريمة الخلق ، شجاعة ، لا تكاد تشبهنى . وأنا – ولا شك – خليق بالاحتقار ، ولكننى أرجو أن تصدقنى إذ أقول لك إنى خليق بالاحتقار لأسباب أنا وحدى الذى أعلمها ، لأسباب لاتخطر على بال أودين ولا السيد جاكوب ولا لانو نفسه . فهؤلاء يحسن بهم – بدلاً من أن يحتقرونى – أن ينظروا فى أنفسهم بثبات وجلد .. وبعد فلعلهم فى قرارة أنفسهم لا يحتقروننى .

غير أن فى أمى عيباً صغيراً . فهى تعاملنى دائماً وكأنى مازلت ذلك الطفل الصغير الذى كانت تدلله وتؤنبه فيما سلف . وهذا يحنق رجلاً يدلف إلى الثلاثين . والحق أن أمى كثيرة التأنيب .. وأنا أعلم أن هذا عيب صغير جداً ، ولكنه مع ذلك يؤلمنى إيلاماً شديداً ، وخصوصا فى مناسبات معينة وفى عيب أمى هذا كنت أفكر وأنا خارج من محلات سوك وسيرو .

وأنعشنى الهواء الطلق . فبدأت أتمالك نفسى ، وأستجمع أفكارى التى شردت فى كل سبيل ، كأنها جياد عربة أيأسها طول الشوط .

وسلكت طريق أوسترلتز وحاولت أن أفهم ما قد حدث لى ، وجعلت أكرر : «إنى رميت إلى الباب .. إنى رميت إلى الباب .... رميت إلى باب المكتب » ومن العسير على أن أنتزع أفكارى من نغم السير ؛ فلما كانت خطواتى منتظمة انتظاماً كبيراً أخذت أوقع عباراتى العنيدة على نغم البولكا .

ووقفت فجأة . فقد بدا لى أن من الضرورى إعلان هذا الخبر لأمى . وأن هذا الخبر كان محزناً جداً . وأنه ينطوى على نتائج مخوفة .

فكففت عن السير واعتمدت بمرفقي على السور الذى يشرف على نهر السين .

وكان الحجر أقرب إلى البرودة فى ظل الأشجار . وكنت بحاجة إلى هذه البرودة وإلى هذا السكون ليتضح إحساسى بما فىّ من حمى واضطراب وكفتنى دقيقة واحدة من السكون لأتبين أنى لم أكن قط فى حالتى الطبيعية تلك الحالة العجيبة التى لا أكون فيها ألبتة .

على أنى وجدت فى هذه الوقفة القصيرة روحاً . والهين من الأشياء يسعدنى . ولكن البلوى أن أهون الأشياء يفسدنى . فما أقل تماسكى !

كان هناك جماعة من الحمالين ينزلون البضاعة فى مركب شراعى . فكانوا يرفعون أحمالهم على حافة الرصيف ويصلون إلى القارب على ألواح طويلة مرنة تتموج صورها على الماء . وشعرت أول ما نظرت إليهم بسرور حقيقى ثم خلتنى أسير على الخشبة الضيقة كأنى بهلوان ، فعرانى شبه دوار واستحوذ على الضيق فانتزعت نفسى عن الحجر وتابعت السير .

وسرعان ما تذكرت أننى يجب أن أعلن لأمى الخبر الفاجع ، وجثمت على صدرى هذه الفكرة .

بدا لى من السهل أن أقول : « إنى فقدت عملى » : فالعبارة قصيرة ، يسيرة ، حاسمة ، ولا يلوح لى نطقها مستحيلاً . وتراءات لى وجوه كثيرة للإفضاء بهذا الاعتراف الأول . فأستطيع مثلاً أن أجلس محطما – وإنها لحالة لم أكن بحاجة إلى تكلفها – وأقول بصوت عال : « أماه ؛ إنى فقدت عملى . » وربما كان أدنى إلى اللباقة والبراعة أن أذهب وأجىء فى الغرفة كعادتى ، حتى لا أزعج المرأة المسكينة ، ثم ألقى فجأة بهذه الكلمات بنغمة يتجلى فيها عدم الأكتراث : « وبهذه المناسبة ! أتعلمين أنى فقدت عملى ؟ » وتراءى لى أن من الممكن أيضاً أن أدخل المسكن ثائراً ، وأقذف – فى عنف – بعبارة كهذه : « دناءة ! فظاعة ! إنهم جعلونى أفقد عملى » ثم تخيلت الصدى المؤلم الذى يكون لمثل هذا الانفجار – ولو كان مصطنعاً – على صحة أمى ، ففضلت أن ألجأ إلى خطة أيسر ، فأدخل حجرتى ، وأخلع حذائى بحركة مسموعة ، فتقول لى أمى : « لماذا تخلع حذاءك ؟ هل أغلق المكتب هذا المساء ؟ » فأجيبها : «كلا ، ولكنى لن أعود إليه ، فقد كان بينى وبين الرؤساء كلام شديد، وفقدت عملى»

وأكرر لك أن هذا القسم من الحديث لم يبد لى منطويا على شيء من الصعوبة . ولكنى كنت أضيق صدراً حين أفكر فى أنى يجب أن أعود على الأمر بالشرح ، وأوضح أسباب خروجى ، وأروى القصة .... تلك القصة العظيمة التى أصبحت – الآن على علم بها .

أما هذا فلا ! لن أفعل ذلك مهما تكن الدواعى ! لقد قلت لك إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب ، ولكنها سوية الطبع . معتدلة النفس ، فليس بمقدورى أن أطلعها على هذه المغامرة المضحكة ، على هذا الأصبع الموضوع على أذن الرجل الضخم الطيب ، على هذه الحماقة!

ولكن .. أهذه حماقة ؟ أهذه مغامرة مضحكة حقًا ؟ كلا ! ألف مرة كلا ! لن أقر لك بأنى مجرم ولا بأنى أحمق . أهذه هى إنسانيتكم ؟ هاك رجلاً مثلك ومثلى ، بينى وبينه حد بلغ من قوته أنه يجعلنى لا أستطيع مس جلده بطرف إصبعى دون أن أكتسب صفة المجرم . إذاً فلست حراً ؟ إذن فالفرد محاط – كالأقطار البحرية – بمساحة لا يجوز للأجانب أن يبحروا فيها إلا بعد أن يستكملوا مراسم خاصة ؟

أنا لا أتظاهر بالشذوذ . فما خلقت إلا كخلقة غيرى . وإن شيئاً ليقول لى : إن هذه الفكرة التى حفزتنى إلى الحركة فى تلك المناسبة لفكرة من الأفكار التى يعرفها كل الناس . إنها لفكرة شاذة مضحكة ، ولكنها – فى صميمها – فكرة طبيعية . أما أن الاستسلام لمثل هذه المشاعر شيء يليق أو لا يليق ، فهذه – وأسفاه ! – مسألة أخرى .

إنى أكره الكذب . ولئن كان ما نلقاه من الشر فى التخلص من الحقائق يكفينا ، هل يجب أن نمزج شقاءنا بشقاء جديد ؟ لهذا لم يخطر ببالى أن أروى لأمى أنى فصلت وفقاً لخطة عامة فى نقص الموظفين ، أو أن دسائس زملائى الحاسدين هى التى أدت إلى فصلى . أو بالأحرى– وما دمت قد حدثتك عن ذلك – خطرت لى هذه الفكرة ، ولكنها لم تلبث إلا ريثما رفضتها فى سهولة .

كانت أفكارى – كما ترى – بعيدة عن أن تدخل الاطمئنان على نفسى . وحين وصلت إلى جسر أوسترلتز كنت قد صممت أن أعلن خبر فصلى بلا أدنى تعليق .

إن جسر أوسترلتز جسر جميل . فهو يمتد وسط مساحة كبيرة بيضاء . وإذا أصاب باريس شيء قليل من الضوء فهو لجسر أوسترلتز . هنالك لا ينقطع النسيم ، ولا روائح السفر ، ولا المراكب العمول ، ولا الباعة من كل جنس ، ولا المصورون

فى الهواء الطلق ، يتخذون من أردية نسائهم حجراً مظلمة ليعيدوا ملء أجهزتهم . هنالك - فى إيجاز - كل ما يستهوى النظر ، وفى الجسر احديداب يسير كأنما دغدغته عربات الترام والأثقال التى تجرى على فقاره . وأقول لك مجملا إنى معجب بمنطقة جسر أوسترلتز فهى مكان لم تتوشح صلاته بذكرياتى السيئة ، ولست أذكر أنى مررت قط بجسر أوسترلتز خزيان أو غاضباً . ومثل هذه الأمور لها وزنها .

ولكن جسر أوسترلتز - وأسفاه ! - لم يغن عنى شيئاً فى ذلك فاليوم . فقد كانت همومى محرقة فلم يمدنى جسر أوسترلتز بقوة .

فأممت حديقة النباتات وقلت لنفسى : « لا شك أن الدرب المحاط بأشجار الساج أرفق بى » فإن هذا الدرب الممتد الذى يصعد نحو المتحف مكان أجد فيه السعادة دائماً .

وكان الدرب المحاط بأشجار الساج خيبة مطلقة . فحين وصلت إلى ما يوازى قمة بيوت النبات الزجاجية كان ضيقى وكدرى قد زادا بعض الزيادة عما كان حين عبرت بوابة الحديقة . وتركنى الدرب أنساب منه ، مظهراً عدم اكتراثه بى ، غير معنى اليوم بأمرى إلا كما يعنى بأجنبى ، غير مظهر لى أية واحدة من آيات الصداقة ، أنا الذى ربت عليه بطوله منذ خمس سنوات ، أربع مرات كل يوم فى الصيف ، وثلاث مرات فى الشتاء .

فاعترانى شعور مؤلم بأن الأشياء تهجرنى وتناوئنى . وإنها لبادرة شؤم ياسيدى أن تخوننا الأشياء فى المناسبات الخطيرة .

بل إن منظر الحديقة النباتية جلب على كدراً لم أكن أتوقعه . فقد كانت الحديقة مغلقة ، ففهمت أنى جئت قبل موعدى ، وإذا واصلت السير كان وصولى إلى المنزل رأد الضحى أمراً غير مألوف يعجل بالكارثة ، أعنى أنه يعجل بالإيضاح .

فعدت أسير نحو حظيرة الدببة . ولم يفارقنى - وأنا أفعل ذلك - غضب أخرس ، لأن عاداتى جميعها قلبت رأساً على عقب ! لا عجب إذا أنكرنى العالم المألوف ، فقد أوقعت الاضطراب فى كل شىء ، ونقضت الاتفاق ، ووصلت فى وقت لا أنتظر فيه ، كما يعود الزوج المرتاب فجأة من سفره .؛

كان لدىّ أكثر من ساعة أضيعها قبل أن أستطيع الوصول إلى شارع بوده فير . فأمضيت هذا الوقت أطوف حول الحديقة النباتية ، كسفينة على مرأى من الميناء تنتظر المد لتدخله .

وكنت عازما ألا أنبس بكلمة من قصتي ، ولكن ثقتي بأن أمي سوف تستوضحني الأمر لم تعفني من الغيظ .

قلت لنفسي : « إن وجهت إلى أدنى لوم فلن أجيبها بشيء . سأظل جامداً ، متكبراً ، كمن عانى ظلماً فادحاً . فأنا الفريسة في هذه القصة بعد كل شيء . لقد عانيت ظلماً فادحاً ومن حقي أن يُعتذر إلى وأن يطيب خاطري .

« لا شك أنها ستؤنبني . فهي تعاملني دائماً كما لو كنت طفلاً . ولا شك أنها سوف تندب حظها ، وتسألني أسئلة ، وتكلمني عن النقود .. أوه ! أما هذا فلا ! إن هذا الموضوع قادر بطبعه على إثارة حنقي . أنا لا أحب أن أسمع حديث النقود .

« فإذا حدث أنها أنبتني فلن أخفي عنها شيئاً من أفكاري . سأقول لها رأيي في تلك الوظيفة القذرة التي أضعتها . أغلطتي أنا أني اشتغلت بالأعمال الكتابية ، وأنا الذي كنت أريد أن أدرس الكيمياء ؟ إني لا أصلح ألبتة لهذه الصناعة المكتبية . لماذا أجبرتني أمي على أن أعمل أولا في بيت موتيه ، ثم في بيت سوك وسيرو ؟ لقد خلقت للكيمياء . كل ما حدث كان لا بد أن يحدث . لماذا لم تدعني هي أسلك طريقي ؟ صحيح أنا فقراء . ولكن هذا ما كان سبباً ليحور حياتي ، ويضيع مستقبلي ، ويكدر سعادتي بل يحطمها . كلا ! كلا ! إني لا أقبل أي لوم في شأن هذه الوظيفة التي ضيعتها فلولا أني أجبرت على قبولها ما ضيعتها » .

وكنت أحس وأنا أذرع الدروب المتمعجة في ذلك التيه أن جيشاً من الأفكار السامة ينفخ في حتى يمتلئ جوفي، فكانت خطاي ترتد دائماً في تلك الدائرة الحمقاء، ومشاعري تدور حول نفسها ، كجماعة من الزرازير لا تدري أين تنزل ، ووصلت بالتدريج إلى هذه النتيجة : أن أمي هي الشخص الوحيد المسئول عن شقائي . فهي التي تركتني أضيع عهد الدراسة بغير أن تحفزني إلى السير في الوجهة الصالحة ، وهي التي دفعتني إلى البحث عن أعمال لا تتفق مع شخصيتي ، وهي التي ستنحى على الآن باللائمة ، فتحدثني عن متاعبنا المالية ، وتبصرني بحماقتي وسوء تدبيري . كلا ! كلا ! إني لا أستطيع احتمال ذلك .

كان الجو إعصارياً هداماً للقوى . وأجهدني الجولان فتصببت عرقاً وصرت أمشي وكأنني مخمور . والحق أني كنت ثملاً . كنت ثملاً بالمرارة والغضب . ومع ذلك فقد ضمنت الشيء الجوهري : لقد أعددت جوبتي كلها ، وكنت محشوا بالحقد حشو المدفع بالبارود . كنت مستعداً . كنت عازماً على أن يكون لي فصل الخطاب .

تستطيع ياسيدى أن تزدرينى . إنى أوافقك على ذلك . ولكنى يجب أن أذكر الأشياء كما هى ... تخيل الآن أى مجنون كنت حين سمعت الساعة تدق نصفاً بعد الثانية عشرة ، وحين جعلت وجهتى شارع پوده فير ، ومشيت مسرعاً كمن كدح ليكسب قوته .

* * *

الدهليز الذى يخترق منزلنا، محاذياً أرض الشارع، مظلم عند الباب كأنه جحر . أكلت بلاطه فى الوسط خطى لا تحصى ، حتى بدا وكأنما شقه من أوله إلى آخره مسيل تتوى فيه المياه الوحلة التى جلبتها الأحذية إليه ، فهى ليست بقايا من مياه المسح ، لأن البوابة عجوز لا تمسح أبداً .

لهذا الدهليز عندى أنطباعات حية أليمة . فهو من تلك الأمكنة التى تكون جزءاً من نفوسنا . وكل أفراحى وأتراحى وثوراتى سبكت بين جدرانه ، فتركت عليها آثاراً لا تمحى : بقعاً غير تلك التى تخلفها الرطوبة وروائح وحشية أنا وحدى الذى أشمها ، وذكريات كثيرة خشنة ، تبطئ دائماً من خطوى ، وتشرب نفسى الكآبة .

والشمس أم النسيان لم تر هذا الدهليز قط منذ ذلك اليوم الذى ضل فى ثنايا الماضى ، يوم أن دفنه البناءون تحت المنزل ، كما دفنت المقابر المصرية تحت الأهرام . ولعل هذا هو السبب فى ازدحام الدهليز بالأشباح .

وأنا آلفه ، كما نألف هذه الأمراض التى أصبحت جزءاً من عاداتنا وكما نألف الأزاهير المرسومة على الحائط فى ليالى الأرق .

آلف مثلث الضوء الشاحب الذى يرسمه مصباح الغاز من الطوار على حائط دهليزى فى ليالى الشتاء .

آلف الرائحة المسكينة الباهتة التى تحوم مع الأهوية المختلفة فى أحشاء منزلى . ولو بعثت بعد خمسمائة عام لعرفت هذه الرائحة بين روائح العالم أجمع . لا تسخر منى ، فعساك تعز أشياء أقذر من هذه ، وأعسر على الاعتراف .

وإن اتفق لى أن عدت من نزهة من النزهات التى يذوق فيها المرء لذات كثيرة جديدة ، ويستشعر فيها رغبات لا تحصى ، أو أتفق أن عدت من نهار جميل كما يعود

المرء من حمام مطهر ، فإن دهليزى يضرب على كتفى ويقول لى : « حذار ! فما أنت إلا سلاڤان !» وتعرونى البرودة لهذا التصريح ، ولكنه يفيدنى ، فمن العبث أن يخدع المرء عن أمر نفسه .

وها أنت ترى أن للدهليز عملا فى قصتى نفسها . فهو يعطلنى ، ويبرد قصتى ، ويشلنى كما كان قميناً أن يفعل فى ذلك اليوم . يوم مغامرتى .

ولكنى ذكرت لك أنى كنت شديد التوثب ، فعبرت الدهليز وكأنى عبرت مستنقعاً مليئاً بالأشواك ، جرّحنى ولكنى مضيت ، ووجدت نفسى قد وصلت بحركة واحدة إلى مَسطح الطابق الأول .

وهناك تعيش بوابتنا العجوز ، فى ظلمة تسكنها روائح المطبخ ، تحت نفثات مصباح غازى لا ينطفئ أبداً ، له أنبوبة يغشاها الماء . ويموت الضوء ويبعث مائة مرة فى الدقيقة ، وبين شهقاته وزفراته ترى نافذة صغيرة تطل على الفناء الداخلى المعتم .

وبوابتنا العجوز تكاد تقضى نحبها فى نفس المكان الذى غرست فيه . وهى تموت مبتدئة برأسها كما تموت أشجار الصفصاف ، فهى شبه مجنونة ، وقد كادت تفقد بصرها من أثر سحابات فى كلتا عينيها أحالت إنسانيهما أبيض اللون ، وعلى الرغم من ذلك فهى تعرفنا جميعاً – نحن ساكنيها – بخطانا ، وتنفسنا ، وبكثير من العلامات الصغيرة الأخرى التى تدلها علينا ، ولا تستطيع هى تحليلها ، فتكاد حساسيتها تلك تشبه حساسية القواقع الساكنة .

دقت البوابة الباب وقالت لى :

– لويس ؛ هناك خطاب لك وجريدة أزياء لمرجريت . فلعلك تسلمها إليها فى طريقك يابنى .

ومرجريت جارتنا ، وهى خياطة . فتناولت الخطاب وجريدة الأزياء ، ومضيت فى صعودى . وكنت أصعد مسرعاً حتى لا أدع لما اعتزمته من الأمور وقتاً تتبدد فيه . وأحدثت لى دورات السلم دواراً خفيفاً كان مألوفاً لى . وعلى الرغم من توتر أعصابى لم أخلف عادتى القديمة قدم حياتى ، فقرأت هذه اللافتة عند مرورى بالطبقة الثانية : « لبارنيو : اختصاصى فى أحذية القماش ونعال الليف » . ولبارنيو صانع بائس يعيش فى فقر مدقع . ولكنى لا أريد أن نضيع الوقت فى الحديث عنه .

حين وصلت إلى مسطح الطبقة الرابعة وضعت جريدة الأزياء على « اللبادة » أمام باب مرجريت ، وأسرعت فنقرت بأصبعى نقراتى الخفيفة على بابنا . ولبابنا جرس ، ومعى مفاتيح ، ولكنى لا أستعمل ذلك كله ، فلى طريقة خاصة فى النقر . إن هذا يبسط الحياة .

وجاءت أمي لتفتح لى ، وفعلتُ وفى ذلك اليوم – أول الأمر – ما ألفت أن أفعله . فإن ساعات الحياة اليومية تكون جهازاً شامل القدرة ، تشدنا أجزاؤه المتتابعة ، وتدفعنا ، وتسيرنا على رغم ما قررناه فى أنفسنا . وأعنى بهذا أنى قبلت أمي ووضعت عصاى فى الأصيص الكبير ، وعلقت قبعتى على المشجب ، وذهبت إلى المطبخ لأغسل يدى ، فكنت أطيع قوى عتيقة مستبدة ، ولكنى لم أفقد شيئاً من غضبى الذى كان يتلوى فى باطنى كما تتلوى قطة فى زكيبة .

وتبعتنى أمى إلى المطبخ ، ورفعت غطاء الوعاء النحاس بطرف المحركة فى لطف ، وقالت لى وهى تهز رأسها :

– لقد صنعت لك ياлويس شريحة صغيرة من لحم الضأن . إن اللحم غال فى هذه الأيام ، ولكنى أردت أن أصنع لك شريحة صغيرة من لحم الضأن ، فأنت تحبها !

قل لى ، ماذا جاءت هذه الشريحة لتفعل وسط عذابى ؟ أيجمل الكلام عن المطبخ مع رجل حاق به الظلم ، رجل يتناهبه اليأس والغضب ؟ لقد ملأتنى شريحة الضأن هذه خزياً . لقد جعلتنى هزأة أمام نفسى . لقد جرحتنى جرحاً عميقاً ، وأحسست إحساساً واضحاً أن أمى تسخر منى .

وبعد فلم الكلام عن ثمن اللحم ؟ إنى أعلم جيداً أن اللحم غال . أتكلمنى أمى عن تكاليف الحياة فى اللحظة التى فقدت فيها وظيفتى ؟ أؤكد لك أن عبارتها لطمتنى كأنها صفعة ، ولكنى لم أقل شيئاً ، حتى لا أغيض شيئاً من حنقى ، وحتى أدعه كاملاً مخيفاً لا رد عليه . واستعرضت فى سرعة كل أجوبتى ، فإذا هى مجهزة حاضرة لاذعة ، مصفوفة أمام عينى كالأسلحة .

وتأهبت للذهاب إلى غرفتى حتى أخلع حذائى بحركة مسموعة كما عزمت . لكن خانتنى الشجاعة فى اللحظة الأخيرة ، فقلت لنفسى : « خير لى أن أنتظر فرصة مناسبة ، كأن تحدثنى أمى مرة أخرى عن شريحة الضأن هذه » .

وبدأنا نتغدى . وكانت معدتى مقبوضة متقلصة ، فلم آكل بشهية ، وجعلت أنظر إلى قعر صحفتى ، وأزيح قطع اللحم حتى أرى شقوق الخزف وأنا أعرف بالدقة كل ما فى صحافنا القديمة من شقوق .

وشعرت بنظرة أمى مثبتة على لا تفارقنى ، فقلت لنفسى : لابد أن مظهرى يدل على ، وأن عارى مكتوب بجلاء على وجهى ، واستنتجت من ذلك أنى مخلوق تافه ، عاجز عن إخفاء مشاعره . وزادنى ذلك حنقاً .

وكنت أنظر بين ألوان الطعام دون أن أنبس بكلمة ، ولم أرد أن أضع يدىّ على المائدة ، فقد كنت أحس نوعاً من الخجل من يدى . كنت إذا أضمرت سراً هاماً خانتنى يداى ، فقد كانتا عاجزتين عن التصنع . لهذا تركت ذراعى مدلاتين – وهما مفرطتا الطول – وجعلت أعبث فى جوربى بأطراف أصابعى ، وتلك لوثة مضحكة لا أستطيع التخلص منها . فقالت لى أمى برقة تنطوى على إهانة بالغة :

– دع جوربك ياولدى المسكين ، فربما خرقته .

فوضعت على المائدة يدىّ المرتعدتين من الغضب . لماذا « ولدى المسكين » ؟ أنا لا أحب أن يُرثى لحالى ، وخصوصاً إذا كنت لا أستحق غير الرثاء . وبعد فلم الحملة على عاداتى وخزعبلاتى ؟ لقد جاوزت السن التى تسمح لامرئ فى مثل طباعى بإصلاح نفسه . لم تبد لى ملاحظة أمى غير مجدية فحسب – فقد أبدتها ألف مرة من قبل – بل بدت لى كذلك مهينة فى تلك الحالة التى كنت فيها . ثم إنى استقبحت أن أوصى بالحرص على جوربى فى لحظة يكاد فيها فقرنا يتحول إلى تعاسة .

أوشكت أن أطلق العبارات المعدة التى زحمت حلقى . ولكن بأيها أبدأ ؟ لقد كانت تتدافع لتخرج ، كالخراف المجنونة التى تريد أن تنفذ كلها – فى وقت واحد – من باب ضيق . وهكذا لم أقل شيئاً فى هذه المرة أيضاً .

وأتممت غدائي وأنا أنظر إلى الأثاث والجدران والمدخنة ، إلى تلك الأشياء التى شهدت على وجودى وائتمرت معى فى أفكار كثيرة باطنية : إلى الأرنبين الخزفيين على خزانة الطعام ، وإلى الساعة الكبيرة التى تحمل تمثالاً صغيراً من البرونز ، والتى تعرف عنى أقاصيص يحسن أن تحتفظ بها لنفسها . ونظرت إلى الرسم التيرولى فى إطاره ، إلى منظر الجبال الذى استنزفت وغيضت فيه أجمل أحلام طفولتى .

لم تشأ إحدى هذه الأدوات أو قطع الأثاث أن تشاطرنى ما أنا فيه . كلها نظرت إلى بقحة . وشعرت أنها ستكون جميعاً - عند أول كلمة من النزاع - فى صف أمى ، وأنها ستكون جميعاً حرباً على .

وحين فرغنا من الطعام لاحظت على زاوية آلة الخياطة ذلك الخطاب الذى سلمته إلى بوابتنا .

ولابد أن نظرة أمى كانت تواكب نظرتى . فسرعان ما تمتمت :

- لعله خطاب من لانو . أظننى عرفت الخط . إنك لم تفتحه .

وكان ذلك حقًا . فأنا - من أنتظر بقلق محموم ساعى البريد الذى لا يكاد يحمل لى شيئاً ، ومن لا أفتح خطاباً إلا فكرت أنه يحمل الخبر العظيم الذى يمكنه أن يحول مستقبلى - أنا لم أفض هذا الخطاب .

فتحته بحذر عبوس : وما ظننته إلا خبرًا سيئًا ، فقد كنت أبحر فى برزخ أجدنى فيه معرضاً لضربات القدر ، وقلما يضيع القدر فرصته .

لم يكن فيه شىء . لم يكن فيه شىء على الإطلاق . فلانو يخبرنى أنه بدأ عطلته ، ويدعونى أن أذهب لزيارته فى أول فرصة : قالت أمى :

- أتذهب هذا المساء ؟

فابتدرت شفتَى عبارة لم أعدها قط ، وأفلتت من بينهما لم أستطع حبسهما . أجبت :

- كلا . سأذهب عصر اليوم .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت باقتراب الأزمة ، ولم يكن فى مقدورى أن أتراجع ، فقد أعلنت الحرب . وأحسست وجهى يلتهب ، وصدغىّ يرتعدان ، وشفتى تقلصان كشفتى جرو يتحفز للعراك .

كانت أمى على وشك أن تقول « كيف عصر اليوم ؟ والمكتب ؟ » فلم أدع لها وقتاً ولفظت بقوة منفجرة :

- لـن أذهب إلى المكتب عصر اليوم . لن أذهب إلى سوك وسيرو . انتهى ! انتهى ! لقد فقدت عملى .

كنت واقفاً متصلب الأعضاء ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنى متحفز متهيئ للوثوب . وكنت أتنفس بمشقة . كنت أنتظر .

وكانت أمى جلسة على مقعدها قرب النافذة ، فرفعت رأسها بغير عجل ونظرت إلىَّ .

وأمى تلبس منظاراً لكبر سنها . ولها عينان ذواتا زرقة دافئة براقة . وهى حين تريد أن تحسن النظر ترفع عينيها لتنتفع أكبر انتفاع بمنظارها .

هكذا نظرت إلىَّ مليًا فى هدوء ، ورأيت نظرتها الحلوة مثبتة علىَّ ، تلك النظرة المفعمة بحنان قلق ، تلك النظرة التى لم تفارقنى مذ كنت فى هذه الدنيا . وأحسست ساقى تهتزان ، فتمتمت أمى بصوت طبيعى عميق واثق :

– ما بالك ياولدى لويس ؟ الوظيفة ؟ هنا لك غيرها . ليس هذا بشر كبير .

ياللحكمة القدسية ! ياللطيبة ! إن هذا صحيح . ليس هذا بشر . رأيت ذلك بلمحة . وكان حقًا أنى لم ينزل بى شر . إذن فلم كنت شقيًا ؟ لم كنت تعساً ؟

تقدمت خطوة فخطوة . ثم أحسست أنى لم أعد مالكا لأمرى ، وأن رعيل الحيوانات الثائرة التى كانت تهاجمنى قد ولت الأدبار منهزمة عنى . وانطبع فى نفسى إحساس ممزق بأنى أنقذت وانتشلت من الهاوية . فسقطت على ركبتىَّ أمام المرأة المسكينة ، وأخفيت وجهى فى ثوبها وأخذت أنتحب بعنف وجنون ، نحيباً ينبعث من معدتى ، وينبسط كالأمواج الصاعدة من غور البحر ، طارداً كل شىء ، كاسحاً كل شىء ، مطهراً كل شىء .

- ٣ -

فى دنيا الناس عاصفة تهب دائماً . فطوبى للقلوب المحترقة التى ترودها ! طوبى للأرض المقفرة التى ترويها تلك العاصفة !

لا أخفى عنك أنى بكيت . إن الأشياء التى يجب أن أخفيها جد كثيرة ، فلأعترفن بتلك الدموع ، فإنى مدين لها بأحسن لحظة فى حياتى .

قلت لك إنى كنت راكعاً أمام أمى . كنت ساجداً أمام تلك الطيبة السمحة ، أمام تلك البصيرة الرءوف . ولم أكن أتعجل النهوض ، أنا الذى لا أفكر فى شىء إلا أن أغير مكانى . لم تقل أمى شيئاً ، وكانت قد وضعت يديها على رأسى ، ولا بد أنها كانت شديدة التأثر ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنها تحك بطرف ظفرها بقعة على ياقة صدريتى . إنها جد معنية بى ، جد مهتمة بأمرى . جد مزهوة بى – المسكينة ! – كأنه فى الإمكان أن يزهو بى أحد !

جمعت خواطرى شيئاً فشيئاً حتى قلت :

– أماه ! نحن نعانى أزمات مالية !

فما كان منها إلا أن أجابت فى بساطة :

– بل إننا لا نعانى أزمة مالية ياولدى لويس .

وكان ذلك حقًا ، فقد كنا فقيرين ، ولكنا لم نكن نعانى أزمة مالية . واضطررت أن أعترف بذلك .

وشعرت شيئاً فشيئاً بأن نوعاً من الفرح المشع يغزونى . وفعلت أمى ما تفعله كل الأمهات فى هذه الظروف : مشطت شعرى ، وربطت رباط عنقى ، وأمرت على وجهى يداً ناعمة لم تستطع أعمال المنزل أن تكسوها خشونة .

ثم فتحت الصوان ذا المرآة ، صوان عرسها ، وأعطتنى منديلاً مطرزاً ، وشيئاً من الماء المعطر ، وملبسة أيضاً .

وأكلت الملبسة وأنا أحبس آخر شهقاتى . كنت صبيًا فى العاشرة ، بل فى الخامسة ، بل كنت صغيراً جدًا حتى وددت لو أننى أهدهد . والحق أعتقد إنى تركت نفسى أهدهد . فلندع هذا الحديث .

كنت فاهما تمام الفهم أن أمى لن تطلب منى إيضاحاً ما . ولو لم يكن غير هذا لوددت أن ألقى بنفسى مرة أخرى عند قدميها ، وأن أقبل حذاءها .

ولكنى فعلت خيراً من ذلك : قدمت إليها كل ما يمكن تصوره من إيضاح . قصصت عليها ما كان منى فى نهارى كله . قصصته عليها بكل تفاصيله لم أحذف منه شيئاً : لا السيد جاكوب ، ولا إصبعى ، ولا أذن الرجل الطيب الضخم . وكانت المسكينة تبتسم . وقد ارتعدت قليلاً لذكر المسدس ، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها . وعادت إلى الابتسام ، بل ضحكت لتؤكد لى أن كل ذلك لم يكن ذا بال ولا خطر .

أما أنا فأعلم أن هذا كله كان ذا بال وذا خطر . وقد أجادت أمى فى محاولتها أن تنسينى الأمر . يا للحظة الجميلة العزيزة ! أتراني كلما أذللت نفسى أمام ذلك الكائن المقدس ، أحسست أننى أسمو وأعظم وأتحرر ! .. هذا أمر غريب لا آخذ نفسى بأن أوضحه لك .

مازلت أرى منظراً من ذلك اليوم المذكور : كنت جالساً على الكرسى الوطىء ذى المسند المرتفع ، وهو من طراز فولتير ، وكنت أتكلم بحرارة وأمى جالسة القرفصاء أمامى ، تخلع حذائى بلطف وتلبسنى كوثى ، لأنها تعلم أنى أحب أن أمكث فى المنزل ساعتين بغير أن ألبس نعلين خفيفتين وملابس عتيقة .

وتابعنا حديثنا ونحن نضحك ضحكات عالية . ولم تبد لى حياتى ولا مستقبلى أنصع مما بدوا فى ذلك اليوم . ولم أشعر نحو الإنسانية بعطف مخلص لا تحفظ فيه كالعطف الذى شعرت به ذلك اليوم .

كل ما لمسته احتفى بى فى أخوة صادقة . وذهبت إلى حجرتى فشعرت أن الأثاث يحيينى بترحاب صامت .

وحجرتى صغيرة مكتظة . هى مملكتى ، وهى وطنى ، وقد ورثت – عن أسلاف مجهولين – أريكة موقرة تشغل ضلعاً كاملاً من الحجرة بين الخزانة والسرير . ولكى أمضى فى قصتى لا أريد أن أتحدث عن تلك الساعات – ماذا أقول ؟ – عن تلك الساعات الجهنمية التى لا تحصى والتى أنفقتها على تلك الأريكة . ويحسبك الآن أن تعلم أن هذه الأريكة فى نظرى مكان مقدس ، فرب مرة ملكت العالم فى الحلم وأنا مستلق عليها .

وبدت لى أريكتى فى ذلك اليوم متألقة تحت كسائها الحائل اللون ، وذكرتنى بكل ما قرأناه معا ، فأنا أقرأ دائما وأنا راقد ، لأنسى جسمى ما استطعت ، ولأكون أشبه بالميت فى حياتى الخاصة ، وأعيش بكل ما فى مع أبطالى .

وأخذت أنبش الحجرة لأجد عقب سيجارة قديمة . فأنا أحب الأعقاب التامة البرودة ، وأتعمد ترك بعض اللفائف دون أن أتم تدخينها لأجدها فى الصباح .

ولم أجد عناء فى الحصول على ما أردت ، وشرعت أدخن وأنا مستلق على ظهرى .

كنت أدخن فى منزلى ، وعلى أريكتى ، عصراً ، وفى غير يوم الأحد . والحق أن هذا كان أمراً خارقاً ، وكان أمراً رائعاً . كانت للتبغ نكهة يزيد طيبها أنك لا تستطيع أن تدخن فى المكتب أثناء النهار . ولست أذكر يوم الأحد ، ذلك اليوم المحترم ، فللتبغ يوم الأحد نكهة الحرية ، وللحياة نكهة كنكهة التبغ .

ورأيت – وأن مستلق على الأريكة – ألواح الخشب الرقيقة التى تنوء بثقل كتبى ، وثبت نظرى على كعوب المجلدات فرأيت مجموعها يتموج كماء جدول . وهذا خيال قديم مازلت أسر به أو يقفُ له شعرى . وفى ذلك اليوم طربت له .

أمضيت على أريكتى ساعة غذية روية مركزة . ساعة من تلك الساعات التى يمكنك أن تتحدث عنها عشرين سنة . ثم ذهبت إلى النافذة لأطالع الكون .

كان الشهر أغسطس. فكانت رائحة المجارى الرطبة تتصاعد من وسط الشارع ، مختلطة برائحة الخضر وصياح الباعة ذوى العربات الصغيرة ، الزاحفين بلا انقطاع فى شوارع الحى الذى أقطنه . والشارع يبدو كأنه شق بإزميل بين كتلة صخرية من الأبنية . وكانت النوافذ كلها مفتوحة ، فكنت ترى الناس كما ترى كائنات مستعمرة حيوانية فى صخرة عالية مشرفة على البحر ، وقد برزت من مكامنها وقت الجزر .

وإن كنت لا تعرف شارع پوده فير فأصنع معى معروفاً ولا تذهب لتكتشفه . فأنا أعلم أنك سوف تتقزز منه ، ولكنى أكره أن أسمع أحداً يعيبه ويحقره ، وأفضل أن أكون أنا وحدى من يذمه .

واستبنت فى أغوار تلك المساكن تفاصيل شتى كانت تبدو لى من قبل حقيرة قذرة ثم بدت لى فى ذلك اليوم شائقة مؤثرة ، ولو استطعت لخاطبت جيراناً لم يكن يبدو على فى العادة أنى أراهم .

ونادتني أمي ، فذهبت إليها وأنا أغني بملء صدري ، فقالت لي مقالتها التي رددتها ثلاثة آلاف مرة :

- خسارة أنك لا تريد تعلم الغناء ، فإن لك صوتاً جميلاً صداحا .

وأتحفتني بمفاجأة أخرى . فأخرجت من الصوان كأسين رقيقتين كفقاقيع الصابون ، وقنينة من خمر سنك تير ، وقد أهدى إلينا ذلك الشراب قريب لنا أقام مدة في إيطاليا .

وليس بي شراهة، ولكن هذه الزجاجة من الخمر القوية كانت متعة لي. قالت أمي :

- اشرب هذه قبل أن تزور لانو ، اشرب هذه حتى يتم نشاطك ومرحك وإذا شئت أن تبقى لتتعشى مع لانو ، فلك أن تفعل .

ونقلت هذه القطرة من الخمر سروري نقلة ألزمت معها أن أمشي ، وأن أنهك نفسي وأضنيها وأستنزفها .

فغيرت ملابسي وقبلت أمي الطيبة ، ودرت هابطاً الدرج بأقصى سرعة .

ينحدر شارع موفتار من الشمال إلى الجنوب، فيخترق حيًا قذراً مكتظًا صاخبًا، كأنه قناة غذائية تمتد في أظلم أجزاء المدينة .

وحي موفتار كأنه شد بأرسان إلى جبل سان جنفييف . فكأنه شاطئ صخري منحدر صمود ، تتكسر عليه أمواج باريس الجديدة .

وأنا أحب شارع موفتار . ففيه مشابه من أشياء كثيرة عجيبة شتى : إنه يشبه مسكن نحل وضعت عليه قدمك . ويشبه تلك السيول التي يجلب النسيانَ هديرها . وهو لاصق بالمدينة كأنه طفيلي نام . وهو لا يحتقر سائر الأرض بل ينكرها . وهو مكتظ قذر كأنه خنزيرة .

ولحي موفتار عاداته الخاصة به وقوانينه التي لا يكون لها معنى ولا سلطان وراء نهر مونج . والغريب القادم من وسط المدينة ، إذا ضل طريقه في شارع بلانفيل أو في ميدان كونترسكارب اجتذبته دوارة موفتار كأنه قطعة من القش ، وسرعان ما يندفع مع الشلال .

وشارع موفتار يبدو كأن به نهماً وحشيًا ، فهو يحمل على سرواته وعلى رءوسه وعلى أطراف أذرعه التي لا تحصى ، ألوفا من الأطعمة ذات الروائح القوية . والجميع

يبيعون والجميع يشترون . وبعض الباعة الأدنياء يطوفون ببضاعتهم فى راحات أيديهم : بثلاث ثومات أو بكامخ أو بعود من ثمر الحناء ، فإذا باعوا هذه البضاعة بيعة رابحة اختفوا وانقضى نهارهم .

وعلى حافات السيل تتكدس جبال من اللحم النيئ ، والأعشاب الخضراء ، والدواجن البيضاء ، والبطيخ الضخم ، وتفتت مياه السيل هذه الخيرات وتذهب بها على مجرى النهر ، لتولد من جديد عند مطلع الفجر .

والمنازل مدهونة بألوان غليظة هى وحدها الألوان المناسبة ، وهى وحدها الألوان الممكنة . فكل باب من ورائه بائعة شواء ، ورائحة الدهن المسخن تصعد بين الجدران كأنها بخور محرق بين يدى إله شره .

وأنا أروى لك كل هذا لأن شارع موفتار كان أول مرحلة فى سعادتى بعد أن خرجت من المنزل .

كانت الساعة قرب الخامسة عصراً ، وقد بدأ الشارع يسكن ، فإن هجومه العظيم يكون وقت الصباح .

وأن تمر بشارع موفتار يوماً وأنت مفعم بالسعادة فذلك متعة سخية تركت نفسى أنزلج حتى بحيرة جوبلان ، كما ينزلج رحالة فى زورق على حافة نهر استوائى . كان كل شىء عندى مصدر إلهام ، فوصلت – مع مرور الدقائق – إلى حالة من الغنى والامتلاء .

وكانت فى حوانيت القديد فتيات سمينات يأخذن الحياة مأخذ الرقص وينعمن على الفطائر بإشارات مرسومة ، بل بلمسات حانية رقيقة ، فيا للفطائر الحلوة !

وكانت الشوارع القذرة الضيقة ، كالسرب الذى سلكه موسى باليهود فى البحر ، تكن ظلا بلون قاموس المحيط ، ظلاً شرقيا تتدفع فيه أفكارى مستطلعة ظافرة .

وتمليت منظر جميلة تبيع الأعشاب المطهوة : مخلوقة فارعة تبدو دائماً وكأنما أبطأها ثقل حلاها الطبيعية ، قيض لى هذا المنظر فى الطريق ، وفى اللحظة المناسبة وهل كان من الممكن أن أحرم شيئا فى ذلك اليوم ؟

كانت كأس خمر سنك تير تتوهج فى جوفى كأنما هى جذوة . فسرت وكأننى أمشى على الهواء . كنت مشمولاً بالبركات . كنت ميسراً لكل غريبة .

كنت – أكثر من عشرين ثانية – إسكافاً فى حانوت تفوح منه رائحة الجلد الروسى . وكانت عشرون ثانية أخرى نصف قرن من حياة التفلسف ، فى عزلة كاملة كأنها كشتبان الخياطة .

كنت تاجر سمك بين ألف سمكة زاهية اللون ، بين جيش من جراد البحر اصطدته بنفسى عند الفجر من بحر مزبد ترصعه الجزر الصغيرة .

وكنت زارع خضر ، وغارس كرم ، وراعى بقر . وحملنى عثكول من الموز إلى الصحراء فى إثر قافلة ، ولكن رائحة الملحات ما لبثت أن فتحت لى مزرعة دخنة فى ريف سيفان .

ما أطيب السعادة ! وما أيسرها وأسهلها ! أصدقنى القول ياسيدى كيف يدبر الناس أمورهم على ألا يكونوا سعداء ، على الرغم من كل ما منحوه من أسباب السعادة ؟

ولما وصلت إلى كنيسة سان ميدار لمحت زميلاً قديماً يدعى ديلونى ، عرفته حين كنت أعمل ببيت موتييه . وكان يشترى طماطم من إحدى النسوة الثرثارات اللاتى يزحمن بسلالهن رصيف شارع موفتار .

جاءنى والهم باد عليه ، وروى لى قصة طويلة مختلطة ، عن زوجة مريضة ، وطفل ميت ، وأشياء أخرى لست أدريها ..

فأحسست تأثراً مؤلماً ، وطفرت فى عينى الدموع ، ماكان أشد طيبتى فى ذلك اليوم ! يالله ! ما كان أعظم شفقتى وطيبتى فى ذلك اليوم !

ولم أستطع كبح جماح قلبى ، فقلت لديلونى :

– أمحتاج أنت إلى نقود ؟ فالأمر كما تعلم ...

فرفض وهو ينظر إلى متعجباً قلقاً . أما أنا فقد نظرت إليه وأنا أفيض عاطفة ، فقد زاد يأسه نشوتى . وربما كان ما أقوله الآن شيئاً فظيعاً . ولكن ألمه أثار فى نفسى عطفاً حاراً لم يخل من لذة . قلت له :

– أأستطيع أن أسدى إليك خدمة ؟ أمحتاج أنت إلى ؟

وجعلت نفسى رهن تصرفه . ووعدته أن أزوره ، وتركته وأنا أقاسمه على الوفاء والولاء .

ولم أزره . بل لا أعلم ماذا كان من أمره ، وما عدت أعنى نفسى بأن أفكر فيه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت حرياً فى ذلك اليوم أن أضحى بأشياء كثيرة ، حتى لايكون شقياً .

إن الظل الذى ألقاه على سرورى لم يزد ذلك السرور إلا تألقاً . فلم تمض خمس دقائق حتى استحوذ على قلبى من جديد ، وملأه كأنه ورم ، وكاد يصبح مربكا ثقيلاً محمله . إنى أحدثك طويلاً عن ذلك السرور ، فاعذرنى ، فما كان ذنبى أنى كنت مسروراً فى ذلك اليوم وقد ثقل على السرور حتى كدت أبكى .

سار بى ذلك السرور العظيم كما يسير شراع منتفخ بقارب على الماء . فصعد بى فى خفة شارع مونج ، وهو مثعب قوى يمتص وسط المدينة قرب المساء ، ويرسل فيضاً متدافعاً إلى الأحياء الجنوبية .

وبعد قليل رأيت نفسى فى المنطقة المقفرة التى تحيط بهال أو كان . وكانت تسطع بحذاء البوابات رائحة منعشة ، هى رائحة براميل نبيذ مفتوحة ، وكانت هذه الرائحة من أجلى .

ولست أدرى - على التحقيق - أين ذهبت بعد ذلك ، فقد كانت أحلامى تختلط بلا انقطاع بالعالم المحسوس ، حتى أنى لم أعد - فى الواقع - موجوداً فى مكان بذاته ، من ذلك الوقت إلى أن كانت الساعة السادسة .

ولعلى وجدت - فى تلك الأثناء - فى أمكنة كثيرة من العالم ، ولعى لم أوجد فى مكان ما . حتى إذا كانت الساعة السادسة ثبت إلى نفسى وأنا على رصيف طريق بوردون .

وكانت هذه محنة حقاً فطريق بوردون مكان مخوف لمن لا يثق بنفسه ثقة كبيرة . إياك أن تقتحم طريق بوردون فى عصر يوم من أيام الصيف مالم تكن فى حالة من الرضى . فهو كئيب محرق . وروائح القناة والأضواء التى تنعكس عليها تحدث للمتنزه دواراً وغثيانا .

خرجت ظافراً من طريق بوردون وانصببت بعزة إلى ميدان باستيل ، وهو مجلجل كالسندان ريان بالإشعة .

ورأتني ضاحية سان أنطوان وأنا أنساب في ضبابة وهاجة ، كرجل أثمله نصر عزيز . وبعد قليل شارفت شارع كلر حيث يقيم لانو . ومضيت أنفق سعادتي مسرفاً وأنا لا أرقب آخر كيسي .

* * *

لا نـو رفيق من رفاق الصبا ، وهو البقية الباقية من عالم أدّرج فى الأكفان . لانو مجموعة ذكريات لا تحصى ، وهو بعد ذلك رجل ، رجل أحبه حباً صادقاً فقد كان دائماً شطراً من حياتى . ولم يكن من أولئك الذين قاسمتهم على الصداقة الأبدية وأنا فى سن الثانية عشرة ، فهؤلاء لا أدرى الآن أذهبوا أم مازالوا أحياء . لم أرسم خططاً مع لانو ، أو قلما فعلت ذلك ، وهذا – بلاشك – هو السبب فى بقائه موصولاً بكل ما يحدث لى .

أنا أحب لانو حبًا هادئاً رقيقاً . أو بعبارة أخرى إن الشعور الذى أجده نحوه يبدو لى صداقة نقية صالحة ... ولكن من الإسراف في الغرور أن أعتقد فى نفسى القدرة على الإحساس بعاطفة حقيقية .

ولا أظن لانو يعلم شيئاً عن كنه صداقتى له . فإن شيئا ما – هو شكل آخر من الغرور – يدفعنى إلى إخفاء أصدق ميولى كأنما هى مظاهر ضعف . ثم إن لانو لا يعلم أنه صديقى الوحيد . فقد تركته دائماً يعتقد أن لى علاقات أخرى ممتعة قيمة لا تحصى . وهل أستطيع أن أعترف للانو بأنى فقير الطبع لا أستطيع أن أصادق الكثيرين ؟

ولانو كاتب عند أحد وكلاء الدعاوى . وقد تزوج المرأة التى أحبها ، والتى سيحبها دائماً ، وله منها طفل جميل أنا عرّابه ... فيالى من عراب !

وكانت الساعة السابعة قد انتصفت حين وصلت إلى منزل لانو . ولم تمض دقيقتان حتى كنت قد صرحت أوضح تصريحاتى . فقد قالت لى مارث زوج لانو :

– أخرجت من المكتب ؟ إن الوقت مبكر ......

فأجبتها :

– أنا لا أذهب الآن إلى المكتب . لقد غادرته ....

وسرعان ما ألقى على لانو أسئلة كثيرة أجبت عنها مرحاً سادراً شارداً ، شأن الرجل الذى تتراءى له صور المستقبل مغرية شتى .

كنت نصف مستلق على الأريكة العريضة التى تجعل من حجرة آل لانو شبه ثوى للزائرين ، أنظر إلى مارث وهى تحم الرضيع قبل أن ترقده فى السرير .

وكان أكتاف لانو يدخن فى غليون صغير من خشب الزيتون ، وقد أمال رأسه الدقيق التركيب الجميل المنظر على كتفه . فكان منظره يعبر عن سعادة هادئة تشبه الغيبوبة أو الخواء أو العدم . كان يعبر عن سعادة مألوفة تشبه سعادة ساعة ذات خطار أديرت مائة عام ، أو سعادة حجر يسقط فى الفراغ سقوطاً أزلياً .

وكانت مارث يبدو عليها الرضى الذى يسبغه وجود خال من الهموم . وكانت على الرغم من ذلك مقطبة الجبين لاتنى تدمدم لعناد عابر يظهره الصغير ، أو لقطرة ماء تقع على الحصير ، أو لقطرة أخرى تصيب مرآة الصوان .

وعجبت لذلك عجباً شديداً ، أنا الذى لا أدرى شيئاً عن السعادة الحقيقية ، أنا الـذى لا أظفر بست ساعات ولا بأربع من السعادة كل عام . وفكرت بغضب مكتوم : « ما قيمة هذه القطرة من الماء ؟ لو أطلق نهر سين كله إلى حجرتى اليوم ما انتقص ذلك من سعادتى شيئاً » .

وتأملت الجماعة التى يؤلفها هؤلاء الأصدقاء . فبدا لى أن الصغير وحده يحيا فى سعادته .

وأما الآخران فهما ينامان فيها ، إن صح هذا التعبير . ونظرت إليهما بشىء من الاحتقار ، وبشىء من الشفقة أيضاً . وفكرت : « إن لديهما كل مسببات السعادة ومع ذلك فهما يشبهان الموميات وسعادتهما كأنهما محفوظة فى القش . أما أنا فرجل بائس ، وولد عاق ، وموظف مطرود ، ولكنى أجدنى اليوم ممتلئاً حتى عينى بسعادة صادقة عنيفة عظيمة ، تنظر إلى سعادتهم كما تنظر جبال هملايا إلى ضفدع . إن فى هذا ظلماً ولكن فيه متعة ! هيا ! هيا ! فلننفخ فى هذه البحيرة الراكدة » .

فجعلت أصفر بملء صدرى ، وجعلت أصفر كإعصار . وأخذت أرتكب خزعبلات لا تحصى ، وكل منها كأنها تشبع شهوة شيطان من الشياطين التى استبطنتنى .

حملت الصغير على كتفى لأرقص به رقصات تدير الرأس . وكان هذا المخلوق الصغير وحده فى مستواى ، وفى مثل حالتى من ثورة السعادة ، فكان يصرخ صرخات عالية ، تحدث نوعاً من الارتياح الحاد لأشياء غريبة كانت تجيش فى نفسى .

وأخذ لانو وزوجته يتحمسان قليلاً قليلاً ، حتى استيقظا بعد الغيبوبة وبدا كأنهما يقولان « أحقا أننا سعداء ؟ فلماذا لا نمرح ؟ ولماذا لا نرقص ؟ ولماذا لا نصيح ولا نثب ولا نقهقه ؟ » .

وأما أنا فقد كنت أرقص ، وكنت أصيح . وكان مرحي مخيفاً .

قال لي لانو فجأة .

– أتبقى لتتغدى معنا ؟

وكنت أتيت على هذه النية ، ولكني أبديت بعض الأعذار ، ليتوسلا إلى أن أبقى . فما إن كف لانو عن الإلحاح حتى نضح صدغاي بالعرق .

فقد تراءت لي أمسية موحشة ، مع ذلك الحمل الثقيل من المرح الذي لا أستطيع حمله وحدي . ولكن لانو واصل إلحاحه ، فقبلت على الفور في جبن ، وأنا أكاد أتلعثم من الخوف .

وكانت تلك اللحظة عقدة منفكة في شبكة طربي المشدودة ، ولحسن الحظ التقطت العقدة على الفور ولم يظهر مثلها بعد .

وأرقد الطفل في احتفال عظيم . وسرعان ما نام . ياللعجب ! إنه انسلخ بلا تردد من وجود ملؤه النشاط ، إلى النوم ، إلى النسيان العميق ، إلى العدم .

لم يكن لدي متسع من الوقت لأغبطه فيه . فقد جرى الحديث عن ألوان الطعام ، ونبتت بذرة المرح التي حملتها إلى المنزل : نبتت الآن من تلقاء نفسها ، وانطلق لانو يهبط إلى القبو ، وهو يقول مقرراً :

– كذا ، كذا ! زجاجة من زجاجات الفوفري الثلاث !

وزادت مارث :

– هذا يومها ! وهذا أوان فتح صندوق الدجاجة المحشوة بالكمأة .

إن سرور الإنسان ياسيدي شعور غريب غير محض . فهو محتاج دائماً إلى أن يعتمد على أشياء مادية ندخلها في المعدة ؛ حتى حين يبدو السرور منقطع الصلة بكل هذه التوافه لابد له – إن أراد البقاء – من أن يستعين بقضايا هضمية ، وقلما يعترف بأن هذه القضايا هي السبب الجوهري في وجوده ، ولكنه يلتمس فيها تأكيدات

وترشيحات ونتائج ... وقد لا يكون فى هذا مدعاة للخجل ، فهو طبيعي من كائنات شرهة مثلنا . انبش ذكرياتك وانظر . ألم تشعر بالحاجة إلى أن تؤكد أحسن لحظاتك بربط سعادتك بمتعة حارة من متع اللسان أو المعدة ؟ هكذا نحن !

وشاقنى أن أشترك مع مارث فى إعداد المائدة . وكانت حجرة طعام لانو تشرف على مساحة واسعة متنوعة المناظر ؛ ففيها أبنية خفيضة ، ومصانع ومعامل ، وجمع متلاصق غير منتظم من المنازل المختلفة الزوايا . وكانت الشمس الغاربة ترسل من خلال هذا الخليط المهوش شعاعاً أفقيا ، ماضيا كالحسام ، يصل إلى داخل الحجرة فيبهر أنظارنا ، ويثير حماسنا .

وأخرجنا الدجاجة من مكمنها ، وكان صندوقا للحفظ رعى أشهراً ، كما ترعى الأشياء المقدسة ، حتى تحل مناسبة عظيمة . وفتح الصندوق وظهر الطائر ، مبتلا منكمشا بين قطع كبيرة من الكمأة ذات الرائحة النفاذة .

وكانت هناك أطايب أخرى ، فأحصيت فى شره ما يمكن أن تزيده هذه الأشياء على سرورى .

وما بدأ الطعام حتى كان لانو وزوجه قد جنا مثل جنونى ، لقد جذبتهما ورفعتهما ، وصرنا نترجح على درجة واحدة من درجات السلم .. كنا دمى من دمى القره جوز مشدودة شداً واحدا .

وسرعان ما مدت سعادتنا جذورها فى ذكرياتنا : جذور طويلة ترتد إلى مسرات الماضى جميعاً فتمتصها لتشركها معها فى الساعة التى نحن فيها .

وكانت ذكرياتنا الطيبة كثيرة . ثم كان هناك سحر فعل فعله فى حوادث كانت تبدو لنا من قبل وخيمة مؤسفة ، فعادت مختلطة مع الأخريات وأسلمتنا إلى الضحك . واكتظت حاجتنا إلى السعادة وسط روائح الأطعمة والأشربة ، وبين نظراتنا الغائمة ونحن على المائدة ، فكأننا حيوان آكل عشب ، منتفخ البطن ، يستطيع أن يجتر مرعى بحاله .

كم من ضحكات لذلك الماضى الذى يغذوه حاضر كئيب كريه ! لقد كانت لأكتاف موهبة فى المحاكاة فمثل لأعيننا وآذاننا رهطا من الأشخاص المضحكين الذين مسخهم قصص عشرين سنة . وكانت تلك الذكريات قد بليت حتى رثت . ولم يكن لدينا خير منها . فكنت كلما بدا لى أن لانو يريد حذف فكاهة من فكاهاتنا الكبرى لا أتردد

فى أن أذكره إياها ، لأنه ما يزال بها بعض قطرات من الرحيق ، كالليمون القديم الذى عصر مائة مرة ولم تكن مارث التى أعرست منذ خمسة أعوام لتشاركنا دائماً فى بعث هذه الذكريات الفكهة من قبورها ، فكان تتعزى بالابتسام . كان ذلك انتقام الصداقة من الحب .

وكنا نأكل أطعمة شهية سائجة ، فأدخلت فى تلك الصواريخ المتوهجة شعلة حارة .

وكان الليل قد أظلم منذ وقت طويل ، وأضىء مصباحه وعمت رطوبته وإذا بشىء جديد يظهر فىّ دون أقل سبب ظاهر أو مفهوم .

شعرت فى لحظة محددة بأنى أقل مرحاً مما كنت قبلها بدقيقة . هاك وصفى ، فلست بقادر على أن أعبر عن الأمر تعبيراً أوضح !

سيدى ! لقد ركبت البحر ، ورأيت ارتفاع المد . إنه يعلو ويعلو ساعات وهو يزداد جسارة وجرأة مع كل موجه ، فلا يستطيع المرء أن يتخيل وقوفه . ثم تأتى لحظة يتردد عندها الماء ، وعندئذ ينتهى كل شىء ! بعد هذا الوهن ترى الماء ينهزم ويتراجع ويهرب هروباً مخزياً ، وينحسر عن قيعان وعرر، وأغوار كانت قد نسيت، يسلم ذلك كله للنور ، فلا تستطيع له كبحا ولا لهذا الفرار منعاً .

لقد أدركت على الفور أن سرورى يذهب ، وأنى سأبقى وحيداً عرياناً مغدوراً .

ولاحظت اختلالا مفاجئاً فى التوازن . فلانو وزوجه ماضيان فى صعودهما ، وأنا أنظر إليهما يرقيان ، كمسافر كليل لا يستطيع أن يتابع رفاقه إلا بالنظر .

وحاولت أن أصمد ، وعبثاً ما حاولت ! فقد ألقيت بضع أكاذيب لم يفد منها إلا صاحباى ، وبدت لى أنا قبيحة شائنة ، وفقدت الأطعمة مزيتها وفاجأت نفسى وأنا أسر انتقادها نوعاً وإعداداً وملاءمة للحال .

وتملكت عينى وأذنى صحوة لئيمة . وجعلت أراقب لانو ، فأقنط نفسى أنه معجب بما يقوله من سخافات وحماقات ، أمنحها أنا ضحكات شحيحة تشوبها السخرية ، فالقسوة .

وددت لو أصرخ مستغيثاً ، مستنجداً ، كبحار مكروب فى زورق ، محطم وكان ذلك عبثاً من العبث . فالوحدة من حولى تتسع وتتسع ، مظلمة مصمتة مروعة . وبدا لى لانو وزوجه أناساً من عالم آخر ، كما يبدو السنونو للسمكة .

لم تكن لى حيلة فاستسلمت بمرارة ، ونظرت إلى نفسى كطائر يذبح حتى يغيض من الدم ، ويرى دمه يسيل منه ، وكل أمل وكل حياة تتسرب .

وأنتهى القربان فى أقل من نصف ساعة ، وشوهت ونخبت وأضنيت .

وأخطر من ذلك أن خسارة مقلقة تفاقمت واستحال تلافيها . فقد أسرفت فى الإنفاق وبددت سرورى ، فأصبحت مديناً حربيًا إلى أمد طويل . وبدأت أندم على سروى الأحمق فى تلك العشية . وأخذت أفحصه فحصاً منظما لا يرحم ، عاداً هذا السرف الأخرق المغرور جريمة منى .

ولم يلاحظ لانو وزوجه علىَّ شيئًا ، فمضيا وحدهما وكأنهما يسخران منى !

وكنت أبدو حاضراً معهما ، بل يخيل إلى أنى كنت أجيب على حديثهما التافه . ولكنى كنت أضمر لهما حقداً يشبه البغضاء . لئن كنت أضعت ثروتى الباطنية وبددتها وخربتها فما ذاك إلا بجريرتهما . فقد ساعدانى فى حماقاتى ، وزاملانى فى بدواتى ، وقذفا بى فى فاقة أيوب . وجاءت لحظة نفد فيها صبرى فنهضت لأنصرف .

وكان لابد لى أن أكابد نوعاً من الصراع ، فقد تمسك بى صديقاى وعزما على أن أبقى ، فتشددت لأخلص منهما ، كما يخلص محب مخدوع من عشيقة طال بها عهده .

فأذعنا وودعانى فى سرعة ضاعفت حنقى .. ألم يكونا اثنين ففى وسعهما أن ينفسا عن غضبهما ؟

أما أنا فقد آن لى أن أعود إلى الانغماس فى الوحدة ، وبدأت أتقزز مما كان منى فى نهارى ، وكانت أكثر وقائعى مرحاً هى أشدها على احتمالا .

وأسرعت أهبط الدرج الأسود الحار ، بعد أن نطقت ببعض كلمات الوداع .

وكنت أحس أنى فصمت القلاس التى كانت تربطنى ، ووجدتنى على الأقل حراً ، حراً فى أن أكون شقيا كما أشاء وحملنى الشارع كما يحمل غريق على أواذى الماء ، ورسمت لى الطريق قوى قديمة مجهولة .

رأيت دقائق ذلك اليوم المشئوم دقيقة دقيقة : المكتب . السيد جاكوب . السيد سيرو ، الإغراء . الفعلة الحمقاء ، التى كانت ضرورية على الرغم من أنها حمقاء . عودتى إلى المنزل ، ثورتى ورفق أمى ..... وبعد هذه النقطة لم أجد من العنف والإصرار ما يمكننى من الحكم على رعونتى ، وسرورى الشاذ ، وحماقتى المسرفة .

وأسخطني على الخصوص أني لم أر إلى أية هاوية من البؤس كانت تقودني هذه السعادة المعربدة التي لا أستحقها .

همت بخطى النائم في باريس مظلمة جافة . وكانت تنفح من الشوارع رائحة خانقة من التراب والروث المحموس . وكان كل مصباح يمسك ظلي وأنا مار به ، ويديره ثم يسلمه إلى المصباح التالي ، حتى كاد ذلك يغثي نفسي .

وأمضيت ساعة مضطربة وأنا مرتفق على جسر سوليّ ، أجمع عناصر يأسي ، وأضمها في حزمة واحدة . وبذلت جهوداً خارقة لأكون شقيًا شقاء مضبوطا . ولكن هذا أيضاً كان على محظوراً ، فما كنت عظيما ولو في الشقاء ، بل كنت شيئاً تافهاً شائهاً قبيحاً يثير السخرية .

وأيقظني جرس منزلي ؛ لا بصوته فهو أجش مطمور في أعمق أعماق البناء ، بل بالبرودة اللزجة التي أحسستها في يدي لمس الزر النحاسي .

وصعدت السلم بخطى بطيئة وقد جللني العرق ، وبوّختني أنفاس طسوت الغسالة الرصاصية الموضوعة على نوافذ السلم .

فلما وصلت إلى باب مسكني بدا لي من الضروري أن أدخل خلسة بغير أنْ أوقظ أمي . فقد ملأني اضطرابا تفكيري في أن أجد نفسي مرة أخرى وجهاً لوجه أمام المرآة المسكينة .

فتقدمت على أطراف أصابعي كاللص . وكانت أمي قد تركت – كما تعودت – مصباحاً صغيراً مضاء على خزانة الآنية ، فأطفأته بفمي حتى لا يقع بصري مصادفة على مرآة ، فأرى فيها وجهي الذي كان – ولاشك – وجهاً بشعاً مرعباً .

ومضيت إلى حجرتي . وخلعت حذائي وانطرحت على الأريكة . وكان ضوء مبهم منبعث من أعماق سماء باريس ينعكس في ضعف واضطراب على نحاس المصباح الصغير المدلى في ركن بين حائطين . فعلقت عيني بتلك الإشارة المروعة ، وأمضيت الليل وقبضتاي على فكي ، أمضيته في احتقار نفسي وكراهة ذاتي .

* * *

- ٥ -

منذ هذا اليوم بدأ عصر ، ترك فى نفسى ذكرى لا يمكن تحديدها ، ذكرى مفعمة بالهدوء والخجل . وإنى لأستذكر ذلك الوقت كما أستذكر نعاساً طويلا ، ولا غرو فقد بذلت إذ ذاك جهوداً صادقة لأصهر أيامى وليالى فى خدر واحد وغيبوبة واحدة .

حدثتك بأن أودين أحضر لى غداة وقعة سيرو أدواتى الكتابية القليلة ، فصففت ذلك كله فى ركن من الحجرة ، منتظراً الوقت الذى أنال فيه وظيفة أخرى . وبدأت للتو حياتى الجديدة .

كنت أستيقظ فى الصباح متأخراً . وكانت تعرونى فى الأيام الأولى – حول الساعة السادسة – رجفة مفاجئة تجعلنى أفتح عينى . وهذا أمر طبيعى ، فقد درجت السنين على أن أستيقظ فى هذه الساعة لأذهب إلى العمل وهكذا ظللت بعض الزمن أستيقظ فى نحو الساعة السادسة . وكنت أحس لذلك نوعاً من السرور ، وأقول لنفسى إنه لا فائدة لى من مغادرة الفراش فى مثل هذا الوقت المبكر ، فليس لدى ما أعمله خارج المنزل . وكانت هذه الفكرة السارة غالباً ما تعقبها أفكار أخرى كثيرة أقل منها إمتاعاً . فكنت أفكر فى وظيفتى الضائعة وفى ضرورة الحصول على غيرها . ولأقل فى إيجاز إن الندم كان أحياناً يسمم هذا الفراغ الذى لا أستحقه ، ثم ينتهى بإيقاظى وكنت فى أكثر الأحيان أبذل مجهوداً عكسيا ، وأستمسك بالهمود الذى يشيعه النوم فى أعضائى ، فأطرد هذه الأفكار النابية ، وأغوص بنشوة فى عدم مخيف لذيذ .

كأنى كنت فى جوف فراغ أسود : راقداً ، معلقاً ، مرجحاً ، وكانت كل أفكارى ومشيئاتى ، وكل الأشياء التى تكون نفسى ، محبوسة دائماً فى دائرة الظلام ، وكانت تتراءى لى كرهط مختلط من الديدان ، وكنت مستريحاً . كنت شيئاً جد قليل ! ولعل الموت شبيه بهذا ، فإن كان كذلك فهو شىء حسن .

لا أذكر إلا أنه كان مثبتاً على روحى – بل على البقية الشائهة من روحى – صورة زرقاء مستطيلة لنافذة ، تترائى من بين الأهداب كأنها تتراءى خلف قضبان قفص .

وأحياناً كان يزورنى وأنا فى قلب هذا العدم – كان يلم بى حلم . وكان حلماً مشوهاً ، لاهثاً ، كالقصص التى تعرض فى السينما .

وأكثر أحلامى يدور فى صمت مخيف . ونادرة تلك التى تحوى جلبة وكلاما وأغانى ، وهى تترك روحى قلقا أياماً كثيرة . وكثيراً ما أحلم فى اليقظة أحلاماً غامضة عنيفة ، فأرى صوراً غير واضحة المعالم ، ولكنها قوية الألوان . ولست أدرى لم أحدثك عن هذا ، فأنا رجل لا أختلف فى شىء عما ألفه الناس ، رجل يشبه كل الرجال إلى حد مخيف !

وأعجب ما فى أحلامى أنى لا أحتاج أن أنام لأحلم ... تذكر أننى لا أعنى الحلم الذى يحلمه الشعراء ، بل الحلم الذى يحلمه النائم ، أى سقوط المرء فريسة لعالم مخيف متنافر رائع . وكثيراً ما أكون مشغولاً جداً ، فأنا مثلاً جالس أكتب تحت مصباحى الصغير المظلل ، وإذا بى لا أجد وقتا أحس فيه أن روحى قد بدلت سيرها ، وأنى دخلت فى حياة جديدة . وكانت هذه الحالة تفجؤنى أحيانا وأنا سائر فى الطريق .. ولكنى يجب أن أحدثك عن أحلامى فى وقت آخر ، وليست بالقليلة تلك الأشياء التى أريد أن أرويها لك عن هذا العالم ، فلا جدوى من اقتحام العالم الثانى .

وقد حدثتك عن الأحلام التى كنت أحلمها قبل أن أستيقظ . ولو لم أتذكر عند اليقظة شيئاً من هذه الأحلام الصباحية لتنتشر بها حتى تجعل لنهارى عطراً خاصاً ، وتحدد لون نفسى إلى اليوم التالى .

وكنت حين تبلغ الساعة التاسعة أنفض أغطيتى ، ويصل إلى من المطبخ الذى تعمل فيه أمى المسكينة – محدثة جلبة ضعيفة – شذا القهوة ختالا نفاذاً كأنه فكرة . فأنهض وأرتدى ملابسى بتراخ فظيع : تراخى الأشياء التى ينتظر حدوثها .

وأذهب إلى أمى فى المطبخ وأقبلها صامتاً ، وأعتقد كل يوم أنها ستبدى لى ملاحظة حكيمة ، وأنها ستؤنبنى على نعاسى الدائم ، وعلى هذه الأصباح الدسمة التى تجعل فى وجودى فراغات ضخمة معتمة يملؤها الغبار . ولكن أمى كانت تقول لى كل يوم وهى تقبلنى بحنان :

– ولدى لويس ، لقد لدنت لك شيئاً من خبز أمس .

فأجلس على كرسى القش المنخفض ، بين بالوعة المطبخ وخزانة الآنية المصنوعة من الخشب الأبيض ، أحتل هناك مكانا ضيقاً كمسالك القدر وأدير ظهرى إلى الضوء الشحيح فى الفناء الصغير ، وأحس الارتياح حين تسندنى كل الأشياء المحيطة بى ، وتثبتنى وتدعمنى ... أجل ، كنت مرتاحاً على الرغم من كل شىء ، كنت مرتاحا فى بلادة وجبن .

وأنا أحب القهوة ، كما أحب الرائحة اللطيفة التى تنبعث من الخبز الملدن . ولذا كنت أستمتع بتلك النعم التى لا أستحقها ، بينما تنظر أمى إلىَّ بلطف وانتباه ، بعينيها اللتين ألفتا قلة الضوء . وكنت أدرك أن وجهى لابد قد مسخه النوم ، فقد كنت أحس فى قسماتى ثقلاً وانتفاخا ، وفى عينى ورما ، وفى شعرى خشونة وتشعثاً ، ولكنى لم أكن أبالى ، فجل همى ألا أقطع ذلك السحر المخمد الذى يسمح لى بأن أعبر من ليلة إلى ليلة بغير هزة ولا صدمة ولا يقظة حقيقية .

فإذا انتهى الفطور عدت إلى حجرتى لأصلح هندامى . وإذا كان وقتى غير محدود فقد كنت أشرع فى الاغتسال بكثير من الفوضى والإهمال ، ومن ثم كان يتفق لى فى بعض الأيام أن أظل إلى المساء أؤجل حلق ذقنى من ساعة إلى أخرى ، حتى تركت حلاقتها تركا ، وأصبحت لى منذ ذلك الحين تلك اللحية التى تراها ، والتى تثير فىَّ اشمئزازاً عميقاً .

آه ! أنا أخبر بنفسى ياسيدى من أن أحكم على الإنسان حكما فيه رفق أو تسامح ؛ هذا الكائن المنفر الذى وقفت حياته على القذارة والعبودية واعذرنى إذ أقول لك هذا صراحة تامة . فكيف يمكن الحديث عنه فى غير غضب ؟ لقد لبثت ثلاثة عشر عاماً أنفق عشرين دقيقة تقريباً فى العناية بنظافة جسمى ؛ وأؤكد لك أنى كنت أنفق هذه الدقائق العشرين كما ينبغى أن تنفق ؛ فقد كنت أتبع نظاما لا يختلف : اليدين فالوجه فالقدمين الخ .... وكانت الحياة سهلة فلم يكن على إلا أن أطيع عاداتى .

ومنذ أخذت أصرف جل نهارى فى هذه الأعمال نفسها لم أعد أحسن عمل شىء من برنامجى . فكنت أؤجل دائماً هذا الشىء أو ذاك ، وأنا أؤنب نفسى مر التأنيب سراً على هذا التأجيل المكرر . وقد اتفق لى فى هذا العهد الغريب أن أمضيت خمسة عشر يوما متتابعة بغير أن أغسل قدمى ، وهذا لأنه كان لدى عشرة أضعاف الوقت الكافى لذلك . ولا تظن أن هذا كان نسيانا . كلا ! فقد كنت أنظر إلى قدمى العاريتين بشرود ، وأفكر أن لا بأس من تركهما إلى الغد أيضاً . وما زلت أؤجل غسلهما من غد إلى غد حتى أصبحتا غاية فى القذارة .

وكنت أشرع فى التدخين أثناء اغتسالى ، أو أفتح كتابا ، ثم أغوص فى ركن من الأريكة وأحلم أحلاماً مضطربة لا تنتهى . وكانت تنبعث من السرير المشعث نفثات

ضخمة من النوم ؛ وكانت أحلام نومى الكامنة تحت الأثاث ، وخلف الأطر ، وفى الأزاهير المرسومة على ورق الجدران ، تطل بعين ثم تخرج فى لطف كأنها الشياطين ، فتسترد سلطانها على الحجرة وعلىّ ، وتتشابك بالأيدى وتدور حول روحى فى رقصة عاصفة ، ثم يقف الزمن فى عين الأبد ، كسفينة مشلولة على بحر من العسل .

وتدوم هذه الحال حتى تأتى أمى إلى الباب وتفتحه بلطف ، وهى لا تغفل فى أثناء ذلك أن تتنحنح ثلاث مرات أو أربعاً ، فتفر الأحلام كالفيران تحت الخزانة ويفارقنى الخدر ، وتقول أمى :

– لويس ؛ أتحب أن أرتب حجرتك ؟

فأصيح وأنا أسرع بارتداء ملابسى :

– أجل ، أجل ،

ويكون الصابون قد جف على وجنتى ، ولم يبق لى وقت كاف لأحلق ذقنى ، فأسرع بارتداء صدريتى ولبس حذائى ، وأخرج من الحجرة قائلاً :

– إنى ذاهب لأرى وظيفة النساخ التى تعرفينها .. فى مكتب ذلك الوكيل .

فتجيب أمى وهى تطوح مد الذراع بفراش الريش والوسادة ، كأن لم تعمرهما صور كثيرة حية أنا وحدى الذى أعلمها :

– اذهب يابنى .

وأتناول قبعتى وعصاى ، وإن كان بعضهم قد نبهنى فى مناسبة قريبة إلى أن العصا تكسب المستخدم سيماء « الهاوى » التى تزهد فيه الناس ثم أجذب خلفى باب المسكن .

ولا أكاد أغلق ذلك الباب ، حتى أرى نور الدرج الأعشى تجول فيه زحمة من الصور المتسلقة الواثبة المداعبة . إن شياطينى هناك . إنها تنتظرنى ، كالكلاب التى تريد أن تؤخذ للنزهة . فتحيط بى وهى تنبح ، وتلحس يدى وتقفز عند عقبى . وأصطرع – وأنا أهبط الدرج الرطب البالى – بين ألف حلم خرافى ، كغريق يغوص مصوبا فى الماء .

* * *

وأخبط فى الشوارع خبط عشواء . والنهار أمامى كأنه صحراء محرقة لا أفق لها ولا مفاجأة فيها ... يضحكنى أولئك الذين يقولون إن الحياة قصيرة .. أتسمع ؟ إنهم يضحكوننى . يضحكوننى ! إن السنين هى القصار أما الدقائق فطويلة . وما حياتى أنا إلا دقائق .

أسير على الطوار مؤثراً حافته الجرانيتية وأدع طرف عصاى ينغمس فى مسيل الماء جنب الطوار . وأنا أحب مسايل الشوارع ، فهى تجرى على الأرض المرصوفة وتجف فى ساعة محدودة وأنا أعلمها ؛ وهى لا تولد من منبع ، بل من صنبور من الحديد . واأسفاه ! إن نصيب المرء من الشعر لا يعدو ما يستحق . فقد أمضيت – على الرغم من أمى – شطراً من طفولتى أصطاد الدبابيس الصدئة وأزرار الأحذية الصغيرة من شارع تورنفور وقد انقضى عهدى اليوم بالبطبطة فى الماء الوسخ ، ولكنى ما زلت أراقب الشقف الصغير والحصى والغثاء الذى يغسله السيل ويسحبه قليلاً قليلاً صوب البالوعة . بل إن السيل ليغنى أغنيته الحزينة الصغيرة ، فأفكر فى السهوب والأنهار ، والأقطار التى لن أعرفها أبداً . إنه ماء مدنى آسن ، ولكنه ماء على كل حال ! البحر ... البحيرات العظيمة ... سيول الجبال ! لئن مررت بشارع لاموند فى وقت متأخر من المساء ، ساعة تهمد أصوات باريس وتنام ، لتسمعن من تحتك كل بالوعات جبل سنت جنفييف تغنى برقة وكأنها شلالات بعيدة . إنها الشلالات فى رحلاتى أنا .

وكيف يكون الأمر غير ذلك وأنا لم أغادر باريس ، ولم أر شيئاً ، ولا أعلم شيئاً ؟ أنا رجل نكرة لا يؤبه له . أجل ، أجل ، رجل لا يؤبه له . وليس لدى شىء خارق أحدثك به ، فكل وقائعى حدثت فى باطنى . وإنه لكرم منك أن تستمع إلى أنا الذى ليس لدى ما أقوله لك ، أنا الذى لم أخلق إلا من توافه .

كنت أسير على الطوار إذاً . ولم يكن شقائى شديداً ، فقد كان لى من الروح ما يكاد يعادل روح عذراء دودة القز ، ولم أكن أتعجل تحطيم غشائى . وما كان أشد رغبتى أن أظل حتى المساء فى هذا النوع من الخدر الذى يمد لى فى الليل مدا ، ولكن أجهزة شتى كانت تبدأ عملها . – واأسفاه ! – فسرعان ما تأتى نهاية ارتياحى .

وكان ذلك يبدأ فى أكثر الأحيان بتلك القصة السخيفة : قصة عدد الخطى ، أتدرك ما أرمى إليه ؟ إن قطع الجرانيت التى تكون حافة الطوار موضوعة طرفاً لطرف . فكنت أمشى فوقها أول الأمر غير مفكر فى ذلك ثم أبدأ ألاحظ أنى أضع قدمى بين كل

خطوتين على الفرجة بين الحجرتين ثم ألتزم – شبه مرغم – أن أخطو خطوتين بالضبط بين كل فرجة وأخرى ألتزم ذلك بغير أن ألتزمه ؛ ألتزمه بغير أن يبدو عليَّ أنى أفعله . لأنى – أولاً – أخجل أن أعرض على المارة مشهد حماقتى ؛ ثم لأنى مقتنع كل الاقتناع بأن ذلك لا يعدو لعبة من جسمى ، لايشارك فيها روحى بنصيب .

وإليك ما فى هذا الأمر من جنون : تأتى لحظة لا أستطيع فيها أن أذود فكرى عن قصة الفجوات هذه ، ثم أحس قليلاً قليلاً ، وأنا أتظاهر بأنى لا أقيم للأمر وزنا ، أنى أمد خطوتى أو أقصرها حتى تقع نعلى على الفجوة تماما . وأفعل ذلك بغير اكتراث ، كأنى أود أن أخفى عن نفسى ما أفعل . وتستمر هذه الحالة زمنا . ثم ألاحظ فجأة أن الخيال يبدأ دوره . فأقول لنفسى – لا ، لست أنا الذى أقول بل هو شىء فى نفسى ، بغير أن يكون هو نفسى – أقول لنفسى إنى إذا لم أبلغ ثالث مصباح من مصابيح الغاز وأنا أخطو بانتظام خطوتين على كل قطعة جرانيت ، فسوف يقضى على حياتى بالضياع ، وعلى محاولاتى بالفشل . فإذا وصلت إلى ثالث مصباح عينت لنفسى واجبا آخر ، كأن أصل بتلك الشروط نفسها إلى كشك لبيع الصحف . واحد ، اثنان ، واحد ، اثنان ... أفاهم أنت ؟ ذلك والشيطان يتمتم : إذا سار كل شىء كما ينبغى .. إذا ضبطت خطوتيك ، فلابد أن يصيبك بعض الخير فى يومك هذا » .

آه ! أممكن حقا ياسيدى أن يكون المرء غبيًّا إلى هذا الحد ؟ تذكر أنى لا أومن بتة بالخرافات ، وتذكر على الخصوص أنى حين كنت أتصنع هذه الأحاسيس لم أكن أكف عن التأمل فى نفسى تأملا يشوبه الاحتقار بل فى أكثر الأحيان عن التفكير فى أمر بعيد .

وقد تكون هذه القصة المضحكة ، قصة الهاوية . وسأشرح لك ذلك . وإنى لأخجل منه ؛ لكن مادمت قد شرعت أفضى إليك بكل شىء ، فلأفض إليك بكل شىء. وأعنى أنى لن أقول لك أشياء كثيرة ، فإن ذلك الذى يحاول أن يشرح فى عشر مجلدات ما يخطر على قلب إنسان فى دقيقة واحدة ، إنه ليحاول أمراً فوق طاقة البشر .

كنت أسير إذن على حافة الطوار سيراً سهلاً طبيعيًّا ، ولا أفكر فى شىء معين . وإذا بى أتخيل – أو هى على الأرجح فكرة أكثر منها خيالاً حقًّا – أن على يمين الحافة الضيقة وعلى يسارها هاوية ، وأنه يجب أن أتقدم بلا أدنى عثرة ؛ ويكون ذلك حسبى حتى أتردد ، وتضطرب ساقاى ، وأتعثر فى مشيتى ، ثم ينتهى أمرى بأن أضع قدمى على الطوار أو فى مسيل الماء .

وحينئذ يسرى عنى ، فقد بطل السحر ، وأغير الطوار أو أنتقل إلى وسط الشارع ، وألبث برهة طويلة لا أفكر فى هذه الحماقات .

ثم أصل إلى مفترق طرق ، وهذه قصة أخرى ! فإن تعدد المسالك يسلمنى إلى نوع من الذهول .

ولم يكن يعرونى من قبل وأنا ذاهب إلى المكتب شىء من هذا التردد . فقد كان هناك طريق واحد يبدو لى ممكنا : هو ذلك الذى ثبته اعتياد خمسة أعوام أو ستة ، هو ذلك الذى أقامت صواه علامات كثيرة معهودة . أما النزهات التى أحدثك عنها فشأنها غير هذا الشأن ، فخطاى فى أغلب الأحيان لا تتجه إلى قصد معين ، ووقتى لا أجد فيه ضيقاً . وإذن فأنا أقف عند زاوية منزل ، أمام دكان كئيب المنظر ، أجذب يسرة ، وأدفع يمنة ، موزعاً مذبذباً ، أدور حول نفسى كزورق يسحبه التيار فى وجهة وتحثه الريح إلى ضدها . فأغمض عينى وأستخير الحظ .

وعلى الرغم من ذلك يتفق لى وأنا سائر على هذا النمط أن أصل . أو بعبارة أخرى أنتهى إلى أن أجد نفسى فى مكان لا كسائر الأمكنة . ويكون ذلك مثلاً مكتب الوكيل ، حيث وظيفة النساخ .

فأدخل ، وأنتظر ، ويسار بى إلى موظف كبير ، وأجد دائماً شيئاً معطلا فإما أن الوظيفة قد شغلت منذ البارحة ، وإما أنها لا تصلح إلا لشاب حديث السن ، وإما أنها تتطلب خبرة خاصة تعوزنى .

وربما طلب منى « رئيس الكتبة » ما لدى من شهادات مستخدمى السابقين . فأعده بأن أحضرها فى غد ثم أتدحرج مسرعاً على الدرج .

وينتهى نهارى ، فقد حاولت ، وأثبتت لى محاولتى مرة أخرى أنه من المستحيل على أن أظفر بعمل . وكان هذا اليقين هو عين ما أطلب .

وأذهب بعد الغداء إلى حجرتى الصغيرة ، واثقاً مما ينتظرنى هناك ، وإن تجاهلت هذا الذى أعلم .

آه ! لو أننى – ياسيدى – أخاتل ألد أعدائى نصف ما أخاتل نفسى لكنت فى الحقيقة وغداً .

وأشعل عقب لفيفة ، وأبسط الصحيفة ، وأكتب رسالة تافهة . وأسمع الأصوات التى تحدثها أمى وهى ترفع أدوات المائدة أو تغسل الآنية ، فأقول بصوت عال :

– إني عازم على أن أذهب وشيكا إلى مصنع مونتروج هذا . أتعرفينه يا أمي ؟

أو أقول :

– لـم أتلـق بعد رداً من محال مالندوار وسيمونيه إنني أبحث في مصورة باريس ..

هـذه أمثلة من السخافات التي كنت أقولها لأستبعد الأسباب التي اجتذبتني إلى حجرتي .

ولكني أرمق أريكتي البالية من طرف خفي ، فأجد فيها الاستهزاء الخبيث المتعالي الذي تجده فيمن ألف الظفر . وأنظر إليها بغيظ قانط . فتكتفي بأن تتثاءب بكل ما في كسائها من خروق .

وأذهب إلى النافذة وأطالع السحب مهتما . هل يجب أن أحمل مظلة ؟ لا ! وأحكم رباط عنقي أمام المرآة ، وأتصفح مذكرتي . ثم أجد نفسي فجأة ممدداً على الأريكة وأنا لا أدري كيف حدث لي ذلك . فأسمع بظهري الأسلاك الحلزونية تكتم ضحة مهينة.

لا ضير ! لقد كنت ممدداً كزورق في قاع جون . وكانت الأمواج تحملني ، وكنت أسمع التيارات والنسمات ، وكان شيطان الليل يعقد ذراعيه على صدري في عناق وثيق ، فنغوص كلانا في العالم الآخر ، ونحن متشابكان ووجهي لوجه الشيطان .

وكانت اليقظة فظيعة والجسد أثقل من جبل ، وفي الحلق حموضة الطعام الذي لم يهضم بعد .

وأتناول قبعتي وعصاي ثانية لأعود إلى الشارع .

وكنت أفكر أحيانا في وظيفة بعينها يقيض لي أن أعثر عليها وأظفر بها ، وأتخيل ألواناً من السعادة لا يقبلها العقل سأحصل على وظيفة سكرتير أجل ، وظيفة سكرتير ! وسيكون لي مكتب مستقل ، له نافذة تطل على شجرة تغمرني بضوء أخضر حزين ، وسأترك في وحدة تامة ، بل سينتهي الأمر بأن أنسى بعض النسيان ، وأعيش ثمة في سلام عميق ، وأظل هادئاً هادئاً كأني ميت .

سيدي ! ستظن بي ظنا قد لا يكون فيه صواب كثير . ستظن أني دنيء الخلق وأني أكره الناس ، أنا أكره الناس ؟ هذا غير معقول . فأنا أحب الناس ولا آلام إذا لم أستطع احتمالهم في أكثر الأحيان . إنني أحلم بالوفاق ، أحلم بحياة متناغمة واثقة كعناق أبدي . وعندما أفكر في الناس أجدهم جديرين بالحب حتى إن الدموع لتطفر

إلى عيني . ليتني لا أخاطبهم إلا بكلمات الود ، ليتنى أفرغ قلبى فى قلوبهم ، ليتنى أشارك فى آمالهم وأعمالهم وأشغل مكاناً فى حياتهم ، وأريهم مبلغ وفائى وثباتى على العهد واستعدادى للتضحية ! ولكن فى نفسى نزقا وحساسية وانفعالا ، فلا أكاد أجد نفسى وجها لوجه مع كائنات حية تشبهنى - لا مع صور خيالية - حتى تغيض شجاعتى، وتهيج حواسى ، ولا أتمنى إلا أن أعود إلى وحدتى، لأسترد محبتى للناس ، كما أحبهم حين يغيبون عنى ولا تقع عليهم عيناى .

ها أنت ذا ترى أنى أبذل ما فى وسعى لأشرح لك أشياء لا يمكن أن تشرح ، ولأبين لك على الخصوص أنه إن بدت منى كراهة للناس فما ذاك إلا لأنى مفرط فى محبة البشرية .

وقد تقول لى إن مثلى ينبغى له أن يلتمس سعادته فى الأشياء . وأنا أفهم ذلك جيداً ، ولكن الضرورة تلزمك أن تبذل للأشياء أولا لكى تجلب لك المسرة ، وأنا فى أغلب الأحيان روح عقيم قاحل لا يستطيع أن يبدأ بالبذل .

وهكذا كنت أسير فى الشوارع أجتر حياتى ، وأقرر فى كل دقيقة تقريباً أن الحياة تروغ منى ، وأنى خذلت ، وأنى فقير حق ، وأنى بائس .

ورأيت ذات يوم فى شارع ألم ، وهو شارع يغلب عليه الهدوء ، عاملا صبيًّا يجر عربة يد . وكانت العربة موقرة والعامل كضفدع تسحب سفينة ، وكان يمسك بإحدى يديه إحدى ذراعى العربة ، وبالأخرى .. آه .. احزر ! كان يمسك بالأخرى كتاباً ويقرأ - وهو يجر عربته - بعينين تبرزان من رأسه .

لست أدرى ماذا كان يقرأ هذا الصبى . ولكنى لبثت طوال المساء وقد انطبع فى نفسى إحساس كئيب بالحسد والخزى . فقد بدت لى حياة هذا الفتى الطيب الذى يقرأ بين ذراعى العربة ، حياة مليئة غنية مرموقة ، إذا قيست بحياتى العادية الجوفاء .

وغالباً ما كانت نزهاتى على الطوار تسبب لى حوادث كريهة . وإنى أطلق اسم « الحوادث » مرة أخرى على أشياء ليست من الحوادث فى شىء أى على أشياء لا تجرى إلا فى باطن الكائن .

كنت أسير بخطى منتظمة مستغرقاً فى أفكار قديمة ، وذكريات ، وأحلام بتراء ؛ ولم أك أنظر من يسيرون فى اتجاهى ، ولا من يسيرون فى الاتجاه المقابل له . وإذا بامرأة كانت تمشى أمامى ولم أكد أراها تلتفت مستاءة وتغير الطوار فجأة .

وأؤكد لك أن هذا كان أمراً محنقاً ، وأنه ملأنى مرارة . أأمر فى طريقى التعس فأظن تبع نساء من أولئك الحمقى الذين يسيرون فى الأعقاب ؟ وما ذلك إلا لأنى قد أكون مشيت ثلاث دقائق أو أربعاً كما تمشى هذه الخرقاء . وهاتيك حياة المدن الكبيرة ! يجب أن تكون لك مشيتك الخاصة بك ، وأن تعمل على ألا توافق مشية غيرك ، فإذا مشيت كمشية أحد سواك فقد اعتديت على حريته بعض الاعتداء ، أو لعلك قد روعت حياءه ، علينا أن نعيش مع ملايين من الكائنات أمثالنا ؛ متظاهرين بأننا لا نراهم بل متعمدين الفرار منهم فى أدب وحسن عشرة .

وأعترف لك بأن هذا كله يثير اشمئزازى ، وبسببه تعودت أن أختار الشوارع المقفرة من الناس .

وهذه الشوارع نادرة فى باريس . ولهذا كنت مضطراً – فى أكثر الأحيان – أن أمر على كره بأماكن شديدة الحركة . ومن ثم وجدت نفسى ذات مساء فى سوق ليون ده بلفور بطريق أرجو . وإنى لأذكر ذلك المساء لأنى رأيت شيئاً عجيباً : شيئاً أجده محزنا وقد تجده أنت مروحاً ، إذ كانت الحقيقة أن لا شىء فى محزن على الإطلاق .

ذكرت لك أنى كنت أسير فى طريق أرجو الذى تحف به فى هذا الجزء أخصاص حقيرة قذرة تكون حافة السوق . تلك الأخصاص التى تباع فيها الفطائر « الذائبة » الخضراء والوردية الألوان ، والتى تكسر فيها الأنابيب بطلقات البندقية ، وتعرض فيها أمرأة نصفها سمكة ... أشياء – فى اختصار – تجعل المرء يبكى سأما .

وفجأة رأيت شيئاً كالخيمة ، وضعت عليه قطعة من نسيج القطن ، تعلن أن فى داخل هذه الخيمة « البروفسير مستيناكس . يكشف المستقبل بالطرق المغنطية » . وكان أمام الخص جمع صغير من العمال والجنود والمتبطلين ، كما كان هناك شيخ شريد له لحية بنت خمسة عشر يوما ، بيضاء ناصعة ، وتستر جسمه الأسمال ، ويلوح على وجهه المنهك قنوط ساغب لا أستطيع وصفه . رجل أشفى على الهلاك ، ووهن منه العظم ، تنبعث منه ريح بؤس مقيم .

ثم إنه دخل الخص ياسيدى . دخل وراء الخادمات الصغيرات وعمال المتاجر وصبيانها . وكان قابضا يده بشدة على عشر فرنك لا شك أنه نصيبه من جهد نهار ، فقدمه فى قلق وتردد باديين ليدخل السقيفة حيث يحدّث عن مستقبله .

تلك أشياء كنت أراها فى جولاتى .

* * *

- ٦ -

إننى أطيل الوقوف عند تفاهات أرويها لك وأغفل السلك الذى ينظم قصتى .

لقد استمرت الفترة التى حدثتك عنها إلى شهر أكتوبر على وجه التقريب . ولم أكن أحسب الأيام ، بل كنت أحس الزمن ينزلق من تحتى ولا أسأل نفسى أكثر من ذلك . الحياة الحقة ؟ إننى كنت أؤجل الحياة إلى ما بعد ذلك ، إلى التاريخ غير المحدد الذى ستقع فيه الأحداث التى يجب أن تقع لى . أفاهم أنت ؟ على أنى لاحظت تغير الطقس ، فقد جاء البرد وقالت لى أمى ذات يوم :

– لويس ؛ ينبغى أن تلبس ملابسك الشتوية بعد وقت قصير .

وكان عندى للشتاء حلة كاملة عتيقة رمادية ، أحبها كثيراً . وقد أبقت عليها عناية أمى بعض الاحتشام ، ولكن نسيجها كان ناعماً رقيقاً مصقولاً حتى ليبدو عليها الذل والتعاسة . وكان ذلك يسرنى . فقد كانت تلك هى الحلة التى لاءمت بينها وبين روحى ، وكنت ألتمس كل يوم جميع ثنايا هذا الرداء وعاهاته وترميماته ، وكأنها عاداتى الشخصية أو مظاهر فقرى الباطنى وبفضل هذا السروال الأحنف الناحل وبر الركبتين، وبفضل هذه الصدرية الباهتة الحدباء ، كنت أطمئن إلى أنى سأمر غير ملحوظ . وهو نعمة كبيرة من نعم الحياة .

لهذا جعلتنى أمى ألبس ردائى الشتوى وهو هذه السترة المدفئة المائلة إلى السواد ، والتى تراها على اليوم ، وكانت أقرب إلى الجدة آنذاك وكنت أستبشعها ، وما زلت ألعنها .. أنظر إلى أطرافها المضحكة التى تجعلنى أشبه شىء بالخنفساء ! أمن الممكن أن يضطر الإنسان فى سبيل كسب عيشه لا إلى النزول عن وقته فحسب بل إلى تضحية ميوله أيضا وإلى التخلى عن مظهره الخارجى كذلك ؟

كنت ألبس هذه السترة إذن فى جولاتى ونزهاتى ، وكنت لا أحمل فى العادة إلا مقادير تافهة من النقود لا تعدو كسور الفرنك ، إذ لم أكن أجرؤ منذ فقدت وظيفتى على أن أطلب من أمى نقوداً ، ولم تكن المسكينة لتحدثنى قط عن هذه الأشياء ، ولكنى كنت أشترى لها أحيانا بعض الحاجات ، ولا أرد إليها بقية النقود ، فكانت وسيلة مستورة بعيدة تكفى لمدى بالفلوس القليلة التى تفى بضروراتى الضئيلة . ولا تظن أنى كنت أنفق شيئاً ، ولكن الأمر لا يخلو من سيارة عامة أو قطار كهربائى ، أو طابع بريد من حين إلى حين .

وكان هذا النوع من البؤس ، الذى لم أهتم له وأنا فى حلتى البالية ، يبدو لى مروعاً حين أحمل سترة من صوف اسكتلندا تليق ببورجوازى أو موظف رافه . وكانت هذه السترة تبدو لى – فى تنافرها مع حالة جيبى – كذبة لا تحتمل . ولا شك أنى مدين لها بأفكار شتى عارية عن المنطق ، وبسببها أيضاً بدأت أبحث عن العمل بحثاً أكثر نشاطاً وأدنى إلى الواقع .

إن الوظائف كالأفكار ، تجدها حين لا تبحث عنها ، فما أكثر تسرع أصحاب المراكز الطيبة الثابتة من الناس إلى أن يقولوا : « إن الفتى الشجاع القوى العزم حقاً لابد أن يصل .. » آه ! سيدى ! الحظ والنجاح يستطيعان أن يجعلا الناس ظلمة أغبياء !

منذ تلك اللحظة التى قلت فيها لنفسى ، بحسرة الواقع : « هيًّا هيًّا ! يجب أن أحصل على عمل ! » انطبع فى نفسى إحساس مبهم ولكنه ملازم عنيد ، وهو أنى لن أجد عملا ما . وقد كان أن لم أجد عملا ما ، أو عملا يمكننى قبوله دون أن أحط من كرامتى .

جدار ! جدار ! إحساس بأنك أمام جدار شاهق ، شديد الملاسة عظيم السمك ، وأن هذا الجدار هو المستقبل، وأنك لا تستطيع أن تعلوه ولا أن تهدمه ولا أن تنفذ منه . إن الذين لم يجربوا فى حياتهم غير السعادة لا يستطيعون أن يدركوا مثل هذا الإحساس .

لقد اتفق لك – بلا ريب – أنك انتظرت أحداً فى المساء فى ركن شارع تحت مصباح من مصابيح الغاز . وقد اتفق لك أن انتظرت ساعة ثم ساعتين ، ثم علمت أن الشخص الذى تنتظره لن يأتى ، وعلى الرغم من ذلك ظللت تأمل . لقد اتفق لك أن خبرت مثل هذه الأمور ، كما جربت ألم الانصراف والتلفت مرة فى كل عشرة أمتار ، وإن كان جليًّا أنه لن يأتى أحد .. جربت ألم التلفت والنكوص ، وإن كنت موقناً أن ذلك كله لن يجدى عليك فتيلا .

كانت حياتى تشبه من كل وجه هذا الانتظار الذى لا يجدى ، فى ركن الشارع ، تحت مصباح الغاز ووابل المطر . فقد كنت أعلم أن الرجاء عبث كله ، وكنت مع ذلك أصطنع (مرات كثيرة كل يوم) حركات الآمل الراجى ، وأسلك مسلكه .

وكان الشىء العجيب فى أمرى أثناء جولاتى – فى هذه الأوقات من العزلة المتحركة – هو النشاط الزائد الذى تميز به تفكيرى .

.. من العسير أن تعبر بالتحديد عما تريده . فأنا حين أتحدث عن النشاط الذى كان يميز تفكيرى ألاحظ أنى لا أترجم الحقيقة بتّة ، فالقول أنى كنت أفكر بنشاط قد يوهم أنى كنت أعكف على التفكير عكوفاً إرادياً ظافرا . مع أن الأمر خلاف ذلك . فالواقع أن الشىء الذى يسترعى النظر هو – على الأرجح – السلبية التى كنت أفكر بها . فقد كانت تساورنى وتنتابنى وتنغصنى وتأسرنى ألف فكرة أخضع لها ولا أبتعثها أنا بوجه ما . فهل أستطيع القول أنى كنت أفكر ؟ هلى أستطيع أن أدعى هذه الصفة ؟ أليس الأصح أنى كنت الشاهد العاجز ، أو أنى كنت الفريسة ؟ أليس الأصح أنى كنت ساحة المعمعة التى حاق بها الدمار ؟ بلى . الحق أنى ما كنت أفكر ، وما كنت أفعل شيئاً لأفكر ، وإنما كان التفكير يدور فىّ ، وخلالى ، وتجاهى ، وضدى كان التفكير يدور بلا مشقة على حسابى ، كما يقام معكسر فى قطر مغزوٍ .

هناك – ولا شك – ألبّاء مجددون يعتمدون أن يفكروا فى موضوع بعيد وينفذون ما اعتمدوه . هناك من هم قادرون على أن يسيروا روحهم كالسفينة على بحر تناثرت فيه الصخور ... أناس يفكرون حقا ، أى يفكرون فيما يريدون التفكير فيه ، فيالهم من سعداء !

أما أنا ففى أكثر الأحيان مجرى نهر ! أحس تياراً جياشاً يتدافع ، بيد أنى أحتويه . ثم إنى – وانتبه لكلماتى ! – لا أحتويه دائماً ، فهناك الفيضان .

ولك أن ترى الأمور كما تشاء ، فالحقيقة الواقعة هى أن روحى غدت مسرح ثوران شديد ، وأنا أطوف باحثاً عن هذه الوظيفة التى لا تنال .

وهناك تقع حادثة سأحاول روايتها لك ، ويجب أن أرويها لك ، ولكنى لا أستطيع روايتها فى يسر ولا فى هدوء .

عدت إلى المنزل فى أمسية من أمسيات وسط أكتوبر ، ولعل الساعة كانت السابعة أو الثامنة ، وكان ينزل حينذاك مطر من تلك الأمطار التى لا ينبغى أن نقول عنها إنها تنزل ، لأنها كالتى تنضح من الهواء المُدْنف ، والأرض ، والأشياء ، والناس .

وكنت قد رفضت فى عصر ذلك اليوم عرضين أو ثلاثة عروض شائنة : أعمالا كأعمال العبيد أو الآلات أو الدواب . وكنت أسير فى شارع فوجيرار مقبلا من أقصى

جرينل . وأخذت أسترجع نهارى . فما طالعنى منه إلا وجه كئيب شرس ، ولم يكن فى جيبى ما أركب به السيارة العامة ، فمشيت غير مسرع بين برك الماء والوحل ، وأنا ثمل بيأسى ومراراتى .

فلما حاذيت شارع لتريه – وإنى لأذكر المكان جيداً كما ترى – خطرت لى فكرة . وهى أننى عندما أصل إلى المنزل سأعلم أن أمى قد ماتت فجأة .

وأرجو أن تلاحظ أنه لم يكن ثمة سبب ما – ولا ثمة الآن أى سبب – يجعلنى أخشى هذا الأمر . فليس لأمى من العمر إلا ستون عاما ، ولا أعرف بها علة ، وهى تنعم بصحة طيبة منتظمة. ولهذا لا أفكر فى موتها ألبتة إلا كما أفكر فى حادث بعيد ، أو غير محتمل ... حادث يكفينى تخيله لتمتلىء عيناى بالدموع .

ففى ذلك المساء بينما كنت أنعطف من شارع لتريه ، خلتنى أعود إلى المنزل وأجد أمى ميتة . وحاولت أن أطرد هذه الفكرة غير المعقولة ، وأؤكد لك أنها لم تكن فكرة مزعجة ، إذ لم تكن من جنس الإلهام الذى يستبق الحوادث ، بل كانت مجرد تأليف أفكار .. حاولت كما قلت لك ، ولكنى سرعان ما لاحظت أن هذه الفكرة لم تأت وحدها ، فبينما كنت أحاول ذودها عنى ، كانت تهاجمنى أفكار أخرى شتى الأشكال ، كأنها نتائج للفكرة الأولى . وكانت تهاجمنى مهاجمة منطقية ، كما يكون الهجوم الحسن التركيز .

كانت أمى ميتة . لم ؟ وماذا بعد ؟ ما الذى يحدث ؟ الدفن . ورأيت الدفن ، والنعش ، والشوارع الصغيرة ، والمقبرة . كل ذلك رأيته . ثم ماذا ؟ المنزل الخالى . ثم ماذا ؟ رأيت نفسى ، وحياتى كلها ترسم من جديد .

سرعان ما رأيت حياتى ترسم من جديد ، لا بطريقة معينة بل بطرق كثيرة مختلفة . وكان أول شىء خطر ببالى هو هذا : هنالك الدخل القليل . وقد حدثتك عنه من قبل . إنه مائتان وأربعون فرنكا فى كل ثلاثة أشهر . وهو ملكٌ اسمى لى ، لا يُحاز ولا ينقل ، بل لا يجوز رهنه ، وتلك فكرة غريبة لعم لى مات مفلوجا .

وقصارى القول أنه كان هنالك الدخل القليل . ثمانون فرنكا فى الشهر . فنظمت حياتى ، واستأجرت غرفة ، وصرت حراً .. حراً ويائسًا . الخبز والبطاطس . دخلت فى صدَفَة من الوحدة المستوحشة، لم يبق للناس حقوق قبلى. كنت أحيا لنفسى . بمرارة . وهكذا كنت أنتظر الأشياء التى لابد أن تحدث لى فى المستقبل ، وأنا فى استقلال مسكر . آه ؟

آه ! وجدتني فجأة أمام مجلس الشيوخ ، ولم أدر كيف وصلت إلى هناك . وجدتني أمام مجلس الشيوخ ، ورفعت قبعتي التي بلل ظاهرها المطر وباطنها العرق . وتملكتني رعشة شديدة . ونظرت في ضوء المصباح مرعوباً إلى يديّ النديتين المرتجفتين كيدي سكير أو قاتل خوراً . وعاودت السير على حافة الطوار .

إذن فهذا هو الرجل الذي كنته ! لقد فكرت فيّ موت أمي ، فكرت فيه بهدوء ، وسرعان ما نظمت حياتي بغير أمي . ألغيتها فكرياً لأتمتع بالدخل القليل . هذا هو الرجل الذي كنته .

لن أستطيع أبداً أن أقول لك ما حدث . لقد نشب في باطن وجودي صراع . وكان صوت جلي رشيد يقول : «هذه أفكار غير معقولة فيجب أن تحتقرها وتطردها . وكان صوت آخر صافر محنق يردد بعناد : « جبان ! جبان ! » . ولكن صوتاً ثالثاً كان يعد بوضوح وهدوء ، على الرغم من تلك الجلبة : « عشرون فرنكا في الشهر للغرفة ، فيبقى فرنكان كل يوم للمعيشة . ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ، ثم الكتب ، والثياب ، والحرية» .

أمررت يدي على وجهي وأنا أتنفس بصعوبة ، وكانت وجنتاي تتصببان ماء ، ولا أظنه كان دمعاً ، فقد كان يزداد انهماراً ، وكنت أحس إعياء واشمئزازا .

وجلست برهة على السور الحجري الذي تشقه بوابة لكسمبورج وبدا لي أن هذه الراحلة لعضلاتي تهدئ غليان أفكاري ، إن صح أن أسمي « أفكاري » هذه الحشرة التي لا أستطيع قمعها ولا التخلص منها . وشعرت أني أتمالك نفسي قليلاً ، وأني أضطر روحي إلى حالة من السكون ، تذليلك حصاناً حروناً يجذب أعنته جذباً شديدا . كنت أفكر ببطء وأنا أحرك شفتيّ ، كنت أفكر كلمة كلمة : « إذا ماتت أمي .. » ، وسرعان ما شعرت بحلقي يكظمه الأسى ، وعصر معدتي حزن عميق كنت أعرفه جيداً ، لأني جربته من قبل . وإن جاز هذا التعبير قلت إنني قد سرى عني لهذا الألم أيما تسريه ، ففكرت مرة أخرى : « هذه فكرة نابية كل النبو ، فما من سبب يجعل أمي ترحل عني . » لا ، لم يكن هنالك من سبب ، وأخيراً قلت لنفسي : « لا يمكن أن يصيبني شر أكبر من هذا . » فأجاب حزني كله : « لا ! لا ! لا ! لا شر أكبر من هذا » .

وهكذا استطعت أن أعتقد – بضع ثوان – أننى قد استرددت السلطان ، وأنى استعدت القدرة على توجيه روحى .

وتنبهت فى تلك اللحظة إلى أنى لست وحدى بحذاء بوابة لكسمبورج . فقد كان هناك شيخ بائس على رأسه قبعة مدورة كورها المطر ، وكان يقترب فى هدوء وهو يمشى على حافة الطريق ، وحقواه يحتكان بالجدار الصغير المنخفض . وكان يقول بصوت خفيض : « الصحف ! الصحف ! » فلا يسمعه أحد .

وعرفت فيه الأعمى الذى يقاد ثمة كل مساء . وكان رأسه مائلا بعض الميل ، مردوداً إلى الخلف قليلاً ، ووجهه الجامد المغلق يستقبل المطر ، فلو رأيته لقلت إنه يسير زحفاً ، وقف على قيد خطوتين منى ، وكأنه أحسنى ، أو كأنه شعر بضوضاء حياتى . فنظرت إليه وغمغمت :

– هذا ! هذا ! فيم يفكر هذا ؟

– وكدت أدنو منه وأكلمه . أى كلام ؟ أى كلام ؟ لم يكن هنالك وجه اشتراك بين هُوّته وهوتى .

وعاودت السير . فرأيت الأعمى بدأ يزحف بحذاء البوابة ، وكأن ابتعادى ترك له الطريق خالياً .

وظللت فى شبه هدوء حتى وصلت إلى ميدان پانثيون . وأعنى أننى كنت فارغاً أو مقفراً من كل فكرة . فلما دخلت فى شارع أُلم إذا بى أحسب : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء . نصف فرنك للعشاء . سأغسل ملابسى بنفسى . لا حاجة إلى البحث عن عمل منذ الآن . الوحدة ! » .

ورفعت كتفىَّ متألما ، وعزمت على أن أدور دورة صغيرة حتى لا أعود إلى المنزل توًا . وهذا برهان لك على أنى لم أكن فى الحقيقة أشعر بقلق ، فقد كنت أعلم جيداً وأحس جيداً أن أمى بمنأى من الخطر ، وأنها لم تكن محفوفة بالخطر إلا فىَّ ، فىَّ أنا وحدى .

رجعت أدراجى أمشى متمهلا صوب شارع كلوفيس . وكنت أفكر بنظام وإلحاح : « إذا بعت أكثر الأمتعة فسوف يكون فى استطاعتى أن أرحل رحلة قصيرة » .

إذن فلا شيء يمكن أن أفعله ! إنني ما عدت أفكر بالجمل الشرطية بل بالأفعال المستقبلة لاشيء يمكن أن أفعله ! لم أكن سيد أفكارى ، فعبث أن أقاوم ، وعبث على الخصوص أن أضلل نفسى عن جريمتى هذه ، فما كان فى طوقى ألا أفكر تفكير المجرمين » .

سرت على مهل فى الشوارع الصغيرة التى توصلنى إلى شارع پوده فير . ونفذت إلى منزلى ، وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنى ما زلت أحب أمى حبًا ملؤه الحنان ، ولكنى عاجز كل العجز أن أصد عنها خيالاتى ، وأن أحميها من أن تقتل فى باطنى ، وألا أقتلها فى باطنى .

* * *

كانت المائدة تشغل معظم المساحة الخالية وسط الغرفة ، وقد تجردت من المشمع الذى يغطيها عادة ، وطولت بوصلتيها . وكان مصباحنا القديم ذو القائمة الرخامية ينير قطعاً من النسيج مقصوصة وموضوعة على المائدة ، ونماذج مصنوعة من النسيج الموصلى ، وعلب دبابيس ، وكرات خيط . وكانت امرأتان تخيطان وهما مائلتان نحو المصباح ، وشعرهما يكاد يختلط بعضه ببعض . وكانت هاتان المرأتان هما أمى ومرجريت ، جارتنا الخياطة التى حدثتك عنها من قبل .

وقفت فى إطار الباب ، وعرانى – وأنا أنظر إلى ذلك المشهد الهادئ – انقباض شديد .

ورفعت أمى عينين بهرهما نور المصباح ، والتمست وجهى فى الظلام ، ثم ابتسمت ابتسامة حلوة مستعطفة وقالت :

– أهذا أنت يا لويس ؟ إن عشاءك معد فى المطبخ ياولدى ، وقد تركت الحساء على نار لطيفة .

ودقت بكشتبانها المائدة مرتين أو ثلاثا ، كما تفعل الخياطات غالباً ، وأردفت بصوت فيه شيء من الاضطراب :

– لقد استولينا على غرفة الطعام كما ترى . إن مرجريت مثقلة بالعمل ، ولذا أساعدها قليلا .

فمضيت إلى المطبخ ولم أقل شيئاً . وماذا يقال ؟ ألم أفهم ؟ ألم يكن الأمر واضحاً بحيث أفهم ؟

أمسكت الإناء الذى كان ينشُّ فيه الحساء ، وجلست فى مكانى المعهود بين البالوعة وخزانة الخشب الأبيض ، وشرعت فى الأكل .

هذا إذن كل ما أستطيع أن أفعله أنا : الأكل ، ثم إيواء ألف فكرة مرعبة ، ثم حساب منافع الدخل القليل : وهذا هو السبب الذى من أجله تسهر أمى لتخيط الصدريات .

كفتنى نظرة واحدة لأفهم كل شىء : مرجريت ، والنماذج ، وفضلات النسيج ، وكرات الخيط ، وعينا أمى اللتان ترقبان مسرى الخيط المستبهم فى النسيج الأسود . وفى آخر السهرة فرنك وخمسون سنتيما ، أو فرنك وخمسة وستون سنتيما .

لم أستطع أن أمنع نفسى من الترديد : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ... » وكأنى أود أن أنقش هذه الكلمات على جلدى ، أو أرسمها على قلبى بوخزات الدبابيس .

شربت الحساء كله ثم أكلت شيئاً من العدس كان هناك ، ثم قطعة صغيرة من السجق ، ثم قطعة من الجبن . « نصف فرنك للعشاء ! » لقد التهمت كل ما وجدته ، فكان خزيى لذلك أكبر مما أستطيع أن أقدر .

وكنت أستمع وأنا آكل للعاملتين وهما تتسامران بصوت خفيض . وأحياناً كنت ألمح حركة ، وحفيف ثوب ، وضوضاء آلة خياطة تنخر الصمت بضع دقائق . ثم يسود السكون من جديد ، تتخلله بين لحظة وأخرى هذه الشهقة الصغيرة التى تأتيها النساء ليسترجعن ريقهن الذى يتسرب من بين شفاههن المنفرجة .

ولما انتهيت من طعامى ، عبرت حجرة الطعام ، لم أنطق بكلمة ولم أتوقف ، ودخلت حجرتى ، وخلعت حذاءى المبتلين بالماء ، وانطرحت على الأريكة .

كانت حجرتى مظلمة ، وكان يدخل من الباب الذى ظل منفرجا ضوء قليل حزين ، يكون لوحة من تلك اللوحات التى تبقى حية عميقة فى الذاكرة : ركن من الأرض الخشبية اللامعة ، وشيئان أو ثلاثة شبه مكفنة بالظلام ، والزاوية البارزة لإطار ، والشبح الصلب الأكلف لستار .

كنت هادئاً كل الهدوء . كنت فى تمام الصحو والبرود . وكان الإحساس الغالب علىَّ هو التعب والاستسلام .

لا شىء يمكن أن أفعله ! محال أن أنكر أن فى ثناياى رجلاً قادراً على التفكر فى موت أمه ، رجلاً قادراً على أن يحسب سعادته الحقيرة مقدراً موت أمه أول شىء . وأمى تعمل فى تلك الأثناء لتطعم هذا الشخص ، لتكفل له الحساء والعدس والسجق .

وجرت محاولة للتوفيق : « هون عليك ، هون عليك . لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير ، وما الفكرة ؟ أى شىء أبعد عن الوجود الحقيقى من فكرة ؟ » . وكنت على وشك أن أدع هذا الخاطر يهدهدنى ، عندما انبعثت ذكرى مختلسة كأنها فأر يعبر غرفة مسكونة ، ذكرى أذنى رجل ضخم طيب ، يبدو للمرء أن يضع عليها أصبعه ... وينتهى المرء بأن يضع عليها إصبعه .

لا شىء يمكن أن أفعله ! أشعلت لفيفة وتمددت تمدداً ، وذراعاى تتأرجحان ، وساقاى منطرحتان ، وصدرى مكشوف .. حيوان معروض لكلب صيد . حقل قمح مبذول للجراد . جيفة منبوذة للغربان : ساحة عامة . فرج هلوك . أقبلوا ! أقبلوا ولا تخجلوا ! إفعلوا ما بدا لكم ! فماذا أنا – هناك ؟ وأين أنا – هناك ؟

كان الليل قد مضى أكبر شطريه حين نهضت ، فذهبت إلى حجرة الطعام . وعلى أن المصباح كان مظللا فقد جعل أجفانى تطرف . وجلست إلى المائدة .

كانت مرجريت تصفُّ الصدريات فى قطعة من النسيج القطنى الرقيق الأسود ، ولمرجريت وجه جميل ممتلئ قليلاً ، وعينان حنونان كأن فيهما شيئاً من الوجل ، عينان بعث فيهما عمل الليل بعض الأحمرار .

جمعت أمى الدبابيس وكرات الخيط . وكنت قد التقطت كشتبانها ، وأخذت أعبث به وأنا شارد اللب ، وكان ساخناً تنبعث منه رائحة خفيفة من العرق والهواء المحبوس .

قالت أمى وهى تشد أصابعها لتريحها :

– إنى راضية ، فقد أنجزنا عملا كثيراً !

واختلط فى هدوء الليل العميق شذا القهوة بنفح الصوف الحار ، المنبعث من قطع النسيج . وكانت الغرفة الصغيرة يسودها هدوء كثيف ، شبه هلامى ، يكتم الأصوات . وكان المصباح يبدو منهوكا ، وشعلته تنام وهى واقفة .

قبلت مرجريت أمى ، وتمنت لى ليلة طيبة وخرجت .

وأرتجت أمى الباب وعاد إلىَّ .

– ينبغى أن تنام الآن يا بنى .

فأمسكت إحدى يديها بين يدى . كان جلد سبابتها جاسياً ثقبه وخز الإبرة . ومسحت أمى بيدها الأخرى على جبينى مرات كثيرة ، فوجدت هذه اليد غضة . ولم أقل شيئاً ... كنت أسمع صوتا كأنه صادر من أعماق غار ، صوت قلبين يدقان .

- ٧ -

كنت ما أزال نائماً فى صبيحة اليوم التالى ، وأنا فريسة للخدر ، حين سمعت همساً فى الغرفة المجاورة . كانت أمى تقول :

– هو ذاك . هو ذاك يامرجريت . أحضرى إلىَّ عدداً منها كل يوم ، مثل عدد الأمس تقريباً ، ونجلس فى غرفة الطعام كأمس ، فهو أروح .

كنت قد نهضت ، وذهب عنى النعاس ، فتناهبتنى الهموم كأنى إجاصة تالفة ازدحمت عليها الزنابير .

فاغتسلت مسرعاً ، وأفطرت ، وأنا أستشعر العزيمة ، بغير أن أدرى ماذا عزمت عليه . لم تعد خطتى تشبه ساكنات القواقع ، فقد تكون فى باطنها شئ عظمى صلب ، يشبه العمود الفقرى .

– أرتدِ معطفك يا لويس !

فليكن ! فليكن ! المعطف ، فالباب ، فالسلم ، فالشارع .

كان الصباح مضباً دامعاً ، والضباب ينتح قطرات كبيرة صافية على سطوح الأشياء ، والرجال يسيرون سراعاً لا يلوون على شئ ، شأن من يعلمون أين هم ذاهبون .

ووجدت نفسى قرب الساعة الثامنة إلا ربعاً فى ميدان هوبير . وكان كشك الصحف مفتوحاً ، ولكن صحيفة الإعلان لم تكن وضعت بعد ، فجعلت أدير بين أصابعى لفيفة نحيلة ، لأظل مالكا زمام نفسى ، ثم انتظرت مع الآخرين .

كنا خمسة هنالك أو ستة نمشى ذهاباً وجيئة وأيدينا فى جيوبنا ، ونتسارق النظر. وبدا لى أن بيننا نوعاً من القربى ، قربى الفقر والقلق والذلة ، كما خيل إلى أننا نتقارض شيئاً من التحدى .

وفى الساعة الثامنة عرضت صاحبة الكشك اللوح الذى بينت عليه طلبات الوظائف . وكنت قد أرشدت من قبل إلى هذه الوكالة المقامة فى الهواء الطلق ، ولكنى

لم أجرؤ - حتى ذلك الحين - على الالتجاء إليها . فتقدمت خلف الآخرين ، وأنا أتصنع نوعاً من الشرود .

لم يكن من السهل قراءة الكلام المطبوع بالغراء على الورقة المبتلة . وكان بعض الرجال يتهجون الكلمات بصعوبة ، وفى صوت مرتفع ، وهم يمضغونها ، إن صح هذا التعبير . فقد كانت أرواحهم تتشرب هذه الكلمات ببطء .

واجتذب الإعلان الثانى عشر اهتمامى : « محام يطلب شخصاً مثقفاً شاباً حسن التعليم ، عازباً ، للأعمال المكتبية . يرسل الرسم الفوتوغرافى » .

وتراءى لى مكتب قليل الضوء، وبساط مخملى مفروش على أرضه، ونار متأججة ، نار حمراء قانية تشتعل فى جوف المدفأة ؛ وأصائل من الوحدة الطويلة ، وشهقات خطار فى الصمت الكثيف اللبد .

هذا عين ما ينبغى لى .

قالت لى صاحبة الكشك وهى تناولنى الظرف الذى يحتوى على عنوان رقم «١٢» :

- هذا بخمسة وعشرين سنتيما .

وحررت - فى مكتب بريد - كتاباً رقيقاً ، يجمع بين الكرامة والاستمالة ، وبين الحزم والإقناع . وقد أزعجتنى كلمتا « شخص مثقف » ، ولكنى فكرت أن لدى إجازتى العلمية على كل حال ، وتناولت من حافظتى الرسم الوحيد الذى كنت أملكه ، وهو رسم مضى عليه ردح من الزمن ، أبدو فيه مزرفن الشعر ، طرير الشارب ، على وجهى سيماء الكآبة والخجل الذى تنطبع على السحنة بين العشرين والخامسة والعشرين . رسم ؟ لماذا طلبُ الرسم ؟ أفى الدنيا مثل هذا الجنون ؟

وما إن رحل الخطاب حتى شعرت بالاطمئنان والرضى . وتراءى لى النجاح مصادفة من تلك المصادفات السعيدة التى تحول مصاير الرجال .... منذ تلك اللحظة كان لى مستقبل . المستقبل ! أليست هذه فكرة تطرأ فجأة فتكفى لتغير طعم الدنيا ؟

قلت لك إن الجو كان شديد الرطوبة . فأمضيت بقية نهارى فى مكتبة سانت جنفييف ، بركنى المحبب عند الطرف الأيسر لمنضدة فى المؤخرة .

هنالك يطيب لى العيش . فالنوافذ العالية ينزل منها ضوء صاف روحانى يغنى على الصفحات المطبوعة كما يغنى قوس على وتر . كل شىء هنالك بقدر واعتدال ، كأنه فى رأس حكيم ، وبخور الأحجار والكتب ينفذ إلى الروح ويطهرها .

أمضيت ذلك النهار كله فى المكتبة ، وعدت إليها فى اليوم التالى ، فقد كنت أنتظر .. ما جدوى تكرار المحاولة ؟ ألست ترى ذلك معى ؟ إن محاولة واحدة حسنة محكمة التنفيذ ....

حين عدت إلى المنزل فى مساء اليوم الثانى ، سلمت إلى البوابة خطابا . أرد سريع هكذا ؟ صعدت مسرعاً إلى الطبقة الثانية ، حيث يخفق مصباح الغاز فى مسرى الهواء .

وجلست على درجة من درجات السلم ، نحتت حافتها وأكلتها أجيال كثيرة من السكان . وكدت أفض الظرف ، وإذا بى أستاء لتسرعى وفرضت على نفسى – وأفلحت فيما فرضت – ألا أقرأ هذا الخطاب إلا فى حجرتى بعد وقت ، وقد هدأت وسكنت ..... لقد كانت يداى ترتجفان ، ولا يفتح المرء باب حظه الجديد بيدين ترتجفان .

وصعدت الطبقتين الباقيتين فى اتزان غير قليل . وكانت أمى ومرجريت تعملان فى حجرة الطعام ، فتمهلت حتى حييتهما تحية المساء ، وخلعت معطفى ، وأشعلت مصباحاً ، ودخلت حجرتى . وأغلقت الباب . ووضعت الخطاب على المنضدة ، لقد آن أن أفض هذا الخطاب وأعلم . كلا ! لما يؤن ! خلعت حذاءى ، فأنا لا أظل ألبتة لابساً حذاءى حين أكون فى منزلى ... فى جحرى ... فى كهفى ، ولبست كوثى الباليين ، ثم أشعلت لفيفة ، وكنت أخزر عينى بين الحين والحين لأنظر إلى ذلك الخطاب الراقد هناك كأنه شىء لا وزن له ، وهو الذى يحتوى على المستقبل نفسه .. مستقبلى . انتظرت ثم انتظرت ، ولما تحقق عندى أنى أستطيع الانتظار ، عرانى شىء من الزهو ، فبدأت أصبح فخوراً بنفسى ، وبدأت أرى فى أخلاقى رأيا كريما .

على أن هذا الرأى لم يتسع له الوقت ليثبت ، إذ انقضضت على الخطاب ، ولاحظت وأنا أفضه زن يدى ترتعشان ، وهو ما أردت جاهداً أن أتجنبه . كانتا ترتعشان ارتعاشاً شديداً حتى كدت أمزق الظرف وما حواه .

ماحواه ؟ لقد عرفت رسمى أول الأمر ، ثم خطى ، خطابى ، وبعرض الصفحة هذه الكلمات مكتوبة بالقلم الأزرق : « المطلوب سكرتيرة . يرد الخطاب والرسم إلى هذا الشاب » .

لقد مرنت على احتمال الخيبة ، ولكن خيبة هذه المرة ملأتنى فجأة بخزى غريب ، جعلنى أحس أنى أحمر وأكاد أبكى . واسترجعت لتوى نص هذا الإعلان الغريب عن الوظيفة : « شخصاً شاباً ... حسن التعليم .... عازباً ... يرسل الرسم الفوتوغرافى » كيف استطعت ألا أفهم ؟ كيف استطعت أن أخطئ هذه النقطة ؟ وقد أرسلت رسمى ! أنا ! ماذا كان يمكن أن يظن بى ؟

قرأت خطابى ثانية . وبدت لى الكلمات التى رأيتها أمس الأول جلية واضحة – بدت لى فى هذه المرة مفتوحة لكل الريب . وصعدت إلى وجهى دفعات أخرى من الحمرة . رباه ! كيف كنت غبياً ، غبياً ، غبياً ! ... وهزأة ... نعم ، هزأة !

وأمام عينى الجدار مستقيماً أملس كعهدى به . لا شئ .

يمكن أن أفعله. أف لهذا القلب المتردد المتخاذل ! ما أقل أسباب الاحترام عندى ، وما أفظع هذا السيل من القبائح الذى يخترق روحى ! هذه الحرب ! وهذه الهزيمة !

نادت أمى فجأة :

– لويس ؛ تعال ياولدى لتتغدى .

أكان ينبغى لى أن أشكو ؟ أكنت أجرؤ على الشكوى ؟ ألم تكن لى أمى ؟ ألم يكن لدىَّ ما أتعشى به ؟ ألم تكن لى هذه الحجرة الصغيرة . هذا المأوى المغيب الخفى كأنه صدفة ؟ آه ؟ إن الحلزون لا يدرى أنه سعيد !

وإذا كانت أدوات الخياطة تزحم حجرة الطعام تعشينا فى المطبخ . وكانت مرجريت قد بدأت تتعشى معنا منذ أمس لتوفر الوقت ، ودبرت ذلك مع أمى . فلندع الحديث عن مرجريت إن كنت لاترى بذلك بأساً .

كانت جالسة عند أحد طرفى المائدة ، وكنت أشغل الطرف الآخر ، وعن يسارى البالوعة وعن يمينى خزانة الخشب الأبيض ، فكان ذلك المكان هو مكانى الحق فى الحياة . وكانت أمى بيننا ، وكانت تتلفت بين آونة وأخرى لتنظر شيئاً ينضج على موقد الغاز .

تابعت المرأتان حديث نهارهما ، ذلك الحديث الذى لا ينتهى كعملهما ، وكان هذا الحوار أشبه شيء بحديث النفس ، إذ كانت مرجـريت وأمى جـد متشـابهتين . أوه ! لست أعنـى التشـابه الجسمى ، بـل التشـابه القلـبى ، التشابه فى طرق احتمال الحياة .

وقلما كنت أتكلم ، وقلما كنت أستمع . ولكن كلمة واحدة – كلمة الشقاء – كانت تتردد بلا انقطاع فى كلام المرأتين . فتعلقت بها روحى العابرة ، وفتحت فمى وقلت شيئاً ككل ما يقال . قلت ما يقرب من هذا :

– الشقاء ، الشقاء ! يجب ألا يدوم الشقاء طويلاً ، فلعله إن دام طويلاً أن يبقى إلى الأبد .

وكانت أمى ترفع إلى فمها ملعقة حساء ، فأعادتها إلى صحفتها ، وهزت رأسها بغير أن تنظر إلى ، وقالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها :

– وى ! إنه فيما يقول أشبه بأبيه ، أجل إنه أشبه بأبيه .

آه ! لا لا ! فلأعترف بأن عندى دواعى لليأس ! فلأعترف بذلك الآن ما دام لأبى دخل فى الأمر ، فلأعترف بأن لدى ما يدفعنى إلى الجنون ، ما دام أبى الذى لا أعرفه يدخل فىَّ ، وما دام غيره من الناس الذين لا أعرف عنهم شيئاً يدخلون فى . إننـى لا أستطيع أن أجد نفسى . وإذا كنت لابد باحثاً عن نفسى وسط حشد لجب فلأرجعنَّ عن هذه المحاولة ! فلأرجعن عن هذه المحاولة !

وغنى عن البيان أنى فكرت فى هذه الأشياء كلها بغير أن أنطق بكلمة واحدة .

على أن بعض أفكارى ظهر – ولابد – على صفحة وجهى ، لأنى حين رفعت عينى لاقيت عينى مرجريت ، وكانتا تفيضان عتابا ، كما خيل إلى أنهما تفيضان عطفا ، فأمسكت لتوى ؛ أعنى أننى أمسكت عما كنت فيه من تفكير ، أمسكت عن التدحرج فوق منحدرى .

لو أن الأرض التى تسبح منعزلة فى الفراغ التقت فجأة بأفكار عالم آخر ، لملكتها ولا شك دهشة كدهشتى ذلك المساء .

* * *

عدت إلى التطواف على مقربة من كشك ميدان موبير فى صبيحة اليوم التالى قبيل الساعة الثامنة . والحق أنى كنت جزعاً أشد الجزع ، فكان جل مرادى أن أصنع شيئاً ما ، أن ألقى بعظمة إلى ضميرى القلق . أجل ... أن أصنع شيئاً ما ! أياً ما كان هذا الشئ ! فذلك خير من هذا التأمل الباطنى الدائم .

وظهرت صفحة الإعلان ، فأمررت عليها نظرة حزينة . وأخذ الرجال الذين كانوا يحلون طلاسمها مثلى ينسلون واحداً واحداً . وسرعان ما بقيت أنا وحدى.. لا ، لم أكن وحدى . فقد بدأ شخص ورائى يتكلم ، وكان ألثغ ينطق الجيم زاياً ، وكان صوته مريضاً منخوباً . قال :

– كل هذا معروف ! ليس فى هذا الإعلان كله شى ء واحد يجتذب العين . إن مكاتب باريس كلها لا تشتغل منذ ثلاثة أسابيع إلا بخدع بالية .

أنا ذاهب إلى شارع هال .

إننى قليل الإقبال على التحدث مع من ألقاهم فى الطريق . ولهذا تظاهرت بأنى لم أسمع ذلك الصوت الذى كان يهمس فى أذنى ، وتشاغلت بقراءة الإعلان واجتنبت أن ألتفت .

فعاد الصوت يقول :

– ألا تأتى إلى شارع هال ؟

وكانت فى كلماته نبرة مستعطفة حيية حزينة جعلتنى ألتفت .

ولعلك تعرف هذا الرجل ، فهو كثير التجوال فى حينا ، وإنى لأذكر أنى رأيته يتسكع فى الممرات الصغيرة بالبانثيون .

إنه متوسط القامة ، طويل الجذع ، قصير الساقين ، فى نحول الحيوانات الهزيلة وعلى عينه اليمنى غشاوة كبيرة زرقاء ، وأهدابه متلاصقة ، وأجفانه سمراء كالفاكهة المعطوبة ، وله شعر لا لون له يوصف ، ولا يتفق مع أى ضرب من ضروب النجاح فى المجتمع ، وشارب متهدل أصهب أشعث ، ولحية بنت أربعة أيام ، ولا ترى قط إلا بنت أربعة أيام ، وبقع لا تحصى أشبه بالنخالة ، على جلد بلون لباب الخبز ، وياقة منشاة منفصلة ، ذات بياض لاتستريح إليه النفس ، ويدان شعراوان مقروضتا الأظافر ، ورداء طويل ينبغى أن يكون سترة مذيلة ، ولكنه ليس إلا سترة وحسب ، وحذاء بالٍ فتقه ضغط حُساً متناظرة ، وقبعة مستديرة مهيضة غير أنها نظيفة ، وتحت ذراعه حافظة من القماش الذى يشبه الجلد .

بدا عليه التردد . وقال مرة أخرى فى شىء من اليأس :

– تعال معى إلى شارع هال .

فسألته أخيراً :

– ماذا فى شارع هال ؟

– ماذا ؟ ألم تذهب إليه قط ؟ ألا تعرف مكتب باروان لنسخ الجزازات ؟

فهززت رأسى دهشاً ، فقد كنت لا أعرف باروان .

فقال لى رفيقى الغريب فى نبرة مستعطفة :

– تعال معى إلى شارع هال ، تعال ! لست مقيداً بشىء ، فإذا لم يعجبك العمل فأنت حر تنصرف فى أى وقت تشاء ، أو لا تعود ثانية . إنى لأعجب لك إذ لا تعرف مكتب باروان ، فإنك ضامن هناك أن تحصل على فرنك وربع فرنك ، أو فرنك ونصف فرنك إذا أسرعت فى الكتابة .

ونظر إلىّ بعينه الوحيدة فى إلحاح وَجل ، وأردف :

– أنت من موظفى المكاتب .

حقاً إنى كنت من موظفى المكاتب ، ولكنى شعرت بشىء من الخزى ، لأنى ما ظننت قط أن ذلك يبدو علىّ . قال الرجل مرة أخرى :

– لابد أن لك خطاً جميلاً ، وأنك نشيط فى عملك ، فيمكن أن تعمل بفرنك ونصف . ولكن ينبغى أن نسرع لنجد مكاناً ، فإن مكتب باروان مكان قذر ، ولكنه ملجأ نعمد إليه عند الحاجة .

« نعمد » ! شكت هذه الكلمة جنبى وأحدثت لى ألما يسيراً . أوه ! لقد ذكرت لك أنى لست متكبراً ، فلم أستغرب أن يقول هذا الرجل « نحن » ، ولكنى شعرت أن «نحن» هذه تضمنى إلى رفقة تعيسة . وأردت أن أحس طعم «نحن» هذه فى فمى أنا ، فأجبت بمرارة هادئة :

– لا شك أن وجود هذه الأماكن خير « لنا » .

وأسلمت له قيادى . فعاود الرجل الكلام بطلاقة أهل العزلة الذين يظنون أنهم وفقوا آخر الأمر إلى أذن كريمة :

– أما أنا فسكرتير ، أعنى أننى كنت سكرتيرا . ولكن الوظائف الآن معدومة ، واسمى لويلييه ، وأنى لأذكر لك هذا الاسم من فورى ، وإن كنت لا أذكره عادة ، فقد سبب لى بعض المكاره ، إننى أبحث عن وظيفة أستطيع فيها أن أشتغل لنفسى قليلاً ، وهذا أمر جد عسير ، فباريس ليست واسعة كما يظن .

كان يمشى بجانبى ، وكنت أسمع زحيره بين الجمل ، زحير من أدنفه التهاب شعبى مزمن ، وكان يسعل ويبصق بلا انقطاع .

قال لى وهو يمد يده بلفيفة تبغ :

– أتحب أن تدخن لفيفة ؟

وبينما كنا ندخن لفيفتينا ابتسم ابتسامة ضعيفة :

– هذا من تبغ موبير ، فزميلى فى النوم يجمع أعقاب اللفائف ، وهو يعمل فى مصنع « جرو » الذى بالزقاق . إنه تبغ مخلوط ولاشك ، ولكنه لابأس به على العموم ، وهو لطيف هادئ ، ولعل سبب ذلك أن جزءاً منه قد غسلته الأمطار . لقد رأيت أكواماً من التبغ عدة مرات فى مصنع « جرو » : متراً مكعباً على الأقل فى ركن الحجرة . ليت شعرى كم يلزم من أعقاب اللفائف لعمل هذا التل ؟! هيه ! إنه تبغ على كل حال . وهو زهيد الثمن كما تعلم .

كنت أدخن لفيفتى فى نوع من الرعب : إن قسوة الشقاء هى فى تعلمه ، ولم أكن فيه إلا ناشئاً ، فكنت أنظر إلى رفيقى بين لحظة وأخرى وأفكر : « وى ! وى ! بعد عشر سنواتٍ أصبح مثل هذا » .

وكان الرجل يكردح بجانبى ولايكف عن الكلام ، وكانت فى صوته رنات طفلية حنون ، مرجعها بلاشك إلى لثغته . وكان يكثر من النظر إلىّ ، وكان – لقصره – يستشرف ليرانى ، فتلمع العين الوحيدة لمعاناً مضباً ضارعاً يعصر قلبى .

بلغنا شارع هال ، حيث المنازل جميعها كأنها أشربت رائحة قذرة من كرنب عطن ، ووقف زميلى أمام باب كبير . قال :

– سأدلك على الطريق ، أنت لم تأت قط .

وكان هناك فناء مزدحم بعربات اليد ، والصناديق ، وبأشياء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم سلم أسود كريه الرائحة حتى ليبدو كأنه شق فى كتلة من القاذورات .

ولما وصلنا إلى الطبقة الأولى كان رفيقى يلهث . وأمسك بأكرة الباب .

- هنا . لندخل مسرعين . وحذار من الضجة حتى لا يثور بنا الثقيل .

ودخلنا . فتخيلْ قاعة كبيرة تنيرها ثلاث نوافذ ذات ألواح كدرة عليها آثار كآثار الدموع . حجرة درس ، ولكنها لتلاميذ مسنين ، لأشباح تلاميذ يستدرون الإشفاق .

وتخيلْ أن فصلاً من صغار الأطفال نزلت بهم خمس عشرة سنة من الشقاء والمرض والحرمان والكروب ، تخيلها نزلت بهم فجأة وكأنها عاصفة ، فكذلك يكون مكتب باروان وقت العمل .

وصمت كدر ، يتألف من همس مكتوم ، وسعال ، وأنفاس مبهورة ، وأصوات أحذية تحتك بالأرض الرطبة .

والجدران المصنة لا يعلوها إلا قطرات الماء التى نتجت من تكاثف كل الأنفاس .

وعلى الكرسى المرتفع - فهنالك كرسى مرتفع - شىء شبيه بضابط صف ... رجل طيب كله شارب أشهب وعنق وفك ، ولا جبين له ، فشعره فى حاجبيه . وبين هذا الشعر كله عينان داميتان حاميتان . جذوتان فى أرض معشبة .

قال لى زميلى :

- أسرع ! أسرع ! ثمة مكانان ، هنالك قرب النافذة .

فجلسنا جنباً لجنب على طرف « دكة » ، وفتح لويلييه حافظته القماشية وأخرج منها قلمين .

- خذ هذا لك . واذهب الآن إلى الثقيل لتطلب منه جزازات .

وكان الثقيل هو هذا الشىء الشبيه بضابط الصف ، والمستوى على عرشه فى طرف القاعة . أسلمنى سجلا صغيراً وإضبارة من الجزازات البيضاء . فقال لى لويلييه :

- ما عليك إلا أن تنسخ كل العناوين التى بالسجل فى الجزازات هلم ! وهلممت .. ولم أك فاهماً كل الفهم ما حدث لى ، ولا ما كنت أعمله فى ذلك المكان . كنت أعمل جامداً مذهولاً ، وكنت أشعر برغبة قوية فى أن أهرب ، وأخلو إلى نفسى فى شارع مقفر . ولكنى قاومت هذه الرغبة ، وفكرت وأنا أصر بأسنانى : « لا ! لا ! أنت هنا ،

وستبقى هنا . ماذا ؟ إن هذا بدء الانحطاط . إنما هو أول جرعة من الكأس . تجرع ! تجرع ! » وعنيت على الخصوص بألا أدع لشى ء من مشاعرى سبيلا إلى الظهور ، وبألا أبدو دهشاً لأى شئ ، أو مرتاعاً من أى شى ء . وعلى كل حال فإن مجرى تأملاتى لم يمنع أصابعى من الحركة ، فكنت أنسخ وأنسخ ، وأكوم الجزازات المكتوبة إلى يمينى ، حذاء إضبارة الجزازات البيضاء .

وربما توقفت لحظة ورفعت عينى بغير أن أجرؤ على رفع رأسى ، وكانت رائحة الرجال تتحرك وتصطفق بين المناضد ، وكأنها روائح مستنقع تجوس فيه السوائم . ولعلك لم تلاحظ أن رائحة الإنسان هى ملكة الروائح الطبيعية النتنة ... أليست هذه أيضاً سمة من سمات الملكية ؟ وكانت الرائحة التى تنشقناها هناك أشبه بمركب من روائح أخرى كثيرة : من رائحة المدرسة ورائحة المعسكر ورائحة الملجأ ورائحة المستشفى . ولاشك أنه كان فيها من رائحة السجن أيضا ، على أننى لا خبرة لى بذلك .

قلت لنفسى : « إذن فهذه هى رائحتى . أبداً لن أتخلص من تلك الرائحة » .

وكان ضابط الصف يشير من آن لآخر إلى شيخ ضئيل ، حليق اللحية ، حليق الرأس ، كأنه قسيس . وكان يعمل فى الصف الأول . فكان الشيخ الضئيل ينهض من فوره فى مبادرة الخادم ويدس ملء مجرفة من الفحم الحجرى فى تنور صغير يعلوه مرجل .

ظللت لابساً معطفى حتى أخفى سترتى التى كانت نظافتها تخجلنى ، وكان لويلييه يعمل عن يسارى ، وكانت حركاته مثل كلامه ، ثرثارة مرتجفة لا حذق فيها ، وأطراف أصابعه تبرز منها زوائد جلدية ملتهبة ، يقرضها بين آونة وأخرى ، أو يجذبها بأطراف أسنانه ، واستنتجت أن عينه الوحيدة مصابة بقصر نظر شديد ، لأنه كان يقرب الكتابة من عينيه تقريباً ، فيكنس شاربه المنضدة بحركة نشيطة رتيبة ، وكان يعتدل فى أوقات معينة ليبصق بين ساقيه ، فيرانى ويبسم لى بسمة كبسمة الطفل ، فيها من الطهر والحنو ما يجعل الدفء يعود إلى قلبى ، فأتابع عملى وأنا أسائل نفسى كيف تسنى لمثل هذه البسمة أن تزدهر فى مثل هذا المكان .

وحدث عند الظهر شى ء من الاضطراب ، بين المجتمعين . فخرج الشيخ الضئيل الذى يجلس فى الصف الأول ، وسرعان ما عاد إلى « ضابط الصف » بقطعة من الخبز وشريحة فى وعاء معدنى مغطى بصحفة مقلوبة

وأزاح أكثر الرجال أضابيرهم إلي طرف المنضدة وشرعوا يأكلون وسرت بين الموائد رائحة الخبز والسجق ، وتبعتها ضجة الحديث .

وخرج بعض الرجال ، ومن كان منهم خارجاً إلى غير عودة سلم أضابيره إلى الثقيل ، وسوى حسابه ، وسمعت خشخشة الفلوس ، يتخللها أحياناً رنين رقيق لنقد فضى صغير .

وظهرت وجوه جديدة ، ولم تبق شاغرة إلا أماكن قليلة ، ومن ذهب من الرجال حل غيره محله . وكان جلياً أنهم جميعاً يعرفون ناموس الدار ، وكان هناك نوع من النظام المركب من نظام المدرسة ونظام المعسكر ونظام المستشفى ونظام السجن .

ورد لويلبيه الدكة إلى الخلف ووقف على ساقيه القصيرتين . قال :

إنى ذاهب لأحضر طعامى . فإذا شئت أحضرت لك طعامك . بم تفضل أن تأتدم مع خبز بفلسين ؟ أتريد شواء بثلاثة أفلس أو سميكات بثلاثة أفلس ؟

فأجبت :

– أفضل الشواء .

وظل لويلبيه شاخصاً أمامى . وابتسم مرة أخرى وقال وهو يميل إلى الأمام :

– أعطنى خمسة الأفلس إن لم تر فى ذلك بأساً .

وأتم وهو يبتسم ابتسامة هزيلة :

– معذرة ، فأنا اليوم لا أستطيع النسيئة .

وبينما كنت أعطيه الأفلس الخمسة وأنا أتمتم ببعض كلمات الاعتذار ، همس فى أذنى بصوت كالصفير :

– معى قارورة الماء ... أرجوك .... أنصح لك ألا تتكلم كثيراً مع ذلك الرجل الذى يجلس على طرف الدكة ، فهو رجل غير وقور ، وأنا أعرفه ، لأنه يسكن فى الزقاق . إنه ليس على شاكلتنا ، وهو لا يأتى إلا فى الأيام المطيرة ، أما فى الأيام الأخرى فهو يبيع السيور بلا ترخيص . حسنا ! احرس أشيائى . سأعود .

لم تكن تساورنى أقل رغبة فى الحديث مع من يحيطون بى من الناس . بل إنى لم أكن لأجرؤ على النظر فى وجوههم . فتابعت الكتابة حتى حضر لويلبيه ، وأكلنا . قال لى رفيقى :

– إن الشواء طيب ، ولكن السمك الصغير أكثر صموداً فى الجسم . أنا أفضل السمك الصغير .

ومر العصر كما مر الصباح ، أعنى أنه مر ببطء شديد موئس . وكانت فى الفناء مُبولة ، ذهبت إليها عدة مرات ، وكنت فى كل مرة أشعر لسماع ضوضاء الشارع برغبة شديدة فى أن أهرب وأدع كل شى ء حيث هو : الإضبارة والثقيل وقبعتى التى تركتها على المنضدة ، فتمنعنى ذكرى لويلييه وتردنى فى كل مرة .

ولما كانت الساعة الرابعة ونزلت الظلمة من على الجدران كنسيج العنكبوت الترب ، أضيئت ثلاثة مصابيح غازية . فكانت شعلاتها القلقة تتنزى فى زجاجاتها ، وهى تحشرج حشرجة ضعيفة وتعطس وتختنق . وكان رأس لويلييه المائل يلقى على المنضدة ظلا مستديراً أسود ، يجاهد فيه قلمه ويتعثر ويجمجم .

ولعل الساعة كانت السابعة إلا ربعاً حين قال لى لويلييه فجأة :

– ها قد فرغت ! سأساعدك .

وأمسك لتوه ببعض جزازاتى وعاوننى . وكان يكتب بنشاط محموم ، وعينيه تارة على قلمه وتارة على السجل المفتوح بيننا . وكانت تجف على أصابعه الملتوية بقع كبيرة من الحبر .

ورتب عملى كما كان رتب عمله . فجعل أضابير الجزازات متصالبة بعضها فوق بعض ، ومصنفة أصنافاً مبهمة .

عدّ لى « ضابط الصف » أربعة وعشرين فلساً ، وبلغ ما كسبه لويلييه فرنكاً ونصفاً ، فعراه لتفوقه على شى ء من الارتباك ، ورأى من واجبه أن يعتذر إلىّ .

– حين تكتسب المرانة .....

وانحدرنا ثانية فى شارع هال ، وكان رذاذ دقيق يغطى أرض الشارع المغبرة ،، فكأنه دهنها بغراء ، ويثير رائحة الخضر الفاسدة التى هى فى الحقيقة أنفاس ذلك الحى .

وأخرج لويلييه صندوق تبغه .

– لفيفة ؟

فأحسست أنى جبان جبان . ورفضت كاذباً :

- أنى قليل التدخين .

وكان رفيقى يسرع ليلحق بى . وكان فى مشيته شىء من القفز وشىء من الزحف أيضاً ، شىء من الضنى وشىء من السذاجة . وكان يتكلم بلا انقطاع كشأنه فى الصباح . ولم أسمع كل ما قاله ، فإن ضجة الشارع وضجة أفكارى حجبتا عنى أكثر حديثه . على أن كلمة واحدة - كلمة « المستقبل » - كانت تطفو وسط جمله المضطربة ، وكأنها فلينة فى زبد شلال . قال لى لويلييه :

- أنا الآن أنام فى « عنبر » بفندق الزقاق ولست أحب « العنبر » .

فأنا لا أستطيع أن أشتغل فيه بشغل يخصنى . ولكنى سأستأجر حجرة صغيرة إذا وفقت إلى وظيفة . فإن لدى أشياء كثيرة أريد أعملها .

وجعل يحدثنى عن مشروعاته حتى وصلنا إلى مدخل زقاق موبير .

وكانت تغمر الزقاق ظلمة كظلمة المياه فى أغوار البحر ، وكان يهتز فى أقصاه مصباح ، تقرأ على زجاجه الذى ذهب طلاؤه كلمة « فندق » .

وقف لويلييه ، وجعل يدبدب وهو يتكلم ، وكنت أسمع نعليه تمتصان الوحل وتمجانه على التعاقب . غمغم فجأة وهو يأخذ بيدى :

- قل لى . قل لى . أتأتى إلى شارع هال ؟ أتأتى معى ؟

وأردف بصوت خفيض متوجع متغير :

- إنى أشعر بوحشة شديدة .

وأحسست ارتجاف يده الندية البطن الشعراء الظهر وهى بين أصابعى . فوعدته أن أعود ، بل وعدته أن أعود من غدى . ونظرت مليًا إلى لويلييه ، وكان يغشيه على فترات متقطعة ضوء مصباح من مصابيح الشارع . ثم ذهبت . وأتبعنى بصره حتى انعطفت عند زاوية الشارع .

صعدت - غير مسرع - فى شارع جبل سنت جنفييف . وكان انحداره يحنينى صوب الأرض ، فأشعر أن نوعاً من الكآبة التى تشبه الخوف يهزمنى ويهدمنى

وينخرنى . وكدت لا أجرؤ على العودة إلى منزلى . فقد خيل إلىَّ أن ملابسى وجلدى وروحى فيها ولا شك رائحة مكتب باروان . فجعلت أجترُّ فتات أفكار غريبة : « أنا لم أخلق لأعانى هذا اللون من الشقاء » . لقد كان لى – ولا شك – لونى الخاص من الشقاء ، لونى الذى اخترته بنفسى ، وعلى ذوقى !

ويجب أن أصارحك بأننى قررت قراراً أكيداً وحشيًا أن الموت جوعاً خير من عودة إلى باروان .

أما لويلييه فيخجلنى أن أقول لك إنى مازلت ألقاه فى هذا الحى ، فما إن أراه من بعيد حتى أغير الطوار .. وأعلم أنه لن يعرفنى ، فنظره جد قصير ثم .... ثم إنى غير جدير بهذا الرجل .

كثيراً ما مرضت ، وكان مرضى شديداً ، ولكن أوقات النقه تشفع للمرضى عندى . الحياة ! الحياة ! إنهم يضحكوننى بهذه الكلمة . إنما السعادة فى العودة إلى الحياة ، والحياة - ولا شك - ليست سوى الإفلات من الموت . يخيل إلىّ أننى فى أيام نقاهتى جربت الحياة .

وينبغى أن أقول لك إننى حين أجد نفسى فى بيتى ، بل فى أحضان أريكتى ، بل فى مكمنى ، يخالجنى إحساس كإحساس الناقهين .

ما أزال أنا إياى : سلافان ، الرجل المسكين ، ولكنى لست الآن كما كنت طوال النهارة لست دودة وحطاماً وسؤراً .

كانت أمى ومرجريت تنتظرانىّ للعشاء . ولما وجدتنى فى المطبخ الدافىء النظيف مرة أخرى لم أستطع أن أمنع نفسى من تذوق طعم الرضى والراحة والاستسلام . قالت لى أمى :

- ما أشد إعياءك يالويس !

فلم أجب إلا بهزة غامضة من كتفىّ . وكنت منكس الرأس أعد بطرف شوكتى بعض حبات من اللوبياء متناثرة على أزهار الصحفة الخزفية الملوّنة . وغنى عن البيان أن طعامنا كان فى غاية من السذاجة ؛ بيد أنه كان فيه طعم خاص لا يكون إلا فيما تطهوه الأمهات ، طعم يستحيل علىّ أن أصفه لك ، ولكنى أستطيع تمييزه بين ألف من الطعوم ، كما أميز وجهاً أعرفه بين ألف من الوجوه .

واستأنفت أمى قولها :

- إنك تضنى نفسك ، ينبغى لك أن تشرب معنا الساعة قدحاً من القهوة .

فوافقت مبتسماً . إن أمى لا تـرانى ألبتة رجلاً . فهى تتمتم حين تـرانى حزيناً يائساً :

- هل لك فى قطعة صغيرة من الشكولاتة ؟

ولو كنت قائداً وخسرت معركة لقالت لى أمى : « لا تبكِ ياولدى لويس ، فسأصنع لك شيئاً من القشدة بالسكر المعقود » . والغريب يا أخى أن قطعة الشكولاتة أو القشدة بالسكر المعقود يكون فيها عندئذ كل مزيّة تنسبها إليها المرأة المسكينة ....

فلنعدْ عن هذا ، ولأحدثك عن أمر شاذ . لقد كنت أستمع لحديث أمى اللطيف السلسال وأنا مكب على صحفتى ، فأحسست أن قلقاً جديداً مبهماً ينفذ إلى نفسى.

لقد ألفت أن أعيش تحت عين أمى . ألفت هذه النظرة التى تحيط بى ، وتنفذ فىَّ ، وتنزلق على وجهى ، وتضل فى شعرى ، كأنها يد أو نفس .

لهذا لم أستطع أن أرفع رأسى ذلك المساء ، لأننى أحسست إحساساً جليًا أن هذه النظرة لا تتبع وحدها ارتجاف يدى على المشمع ، ولا تعد وحدها قطيرات العرق التى تنتح على صدغى ، ولا تقرأ وحدها فى قسمات وجهى اضطراب قلبى .

أسرعت بطىٍّ منشفتى ودخلت حجرتى .

ولعلى لم أذكر لك من قبل أنى أوقع على الناى . ولا شك أنى أبالغ حين أقول « إنى أوقع » . فعندى نايٌ من الخشب ذو مفاتيح ، علمنى أحد رفاق الجندية أن أضع أصابعى عليه ، ودرست عامين فى أوقات فراغى دراسة تكفى لقراءة الصفحات المتوسطة الصعوبة ، ثم انقطعت عن الدرس ، وانقطع بذلك استكمالى الفن ، ولهذا تجدنى أعزف عزفاً رديئاً ، ولعلك حزرت ذلك ، فلو أنى أتقن شيئا من الأشياء . ماكنت هذا الرجل الذى تراه .

والمؤلم أنى لنقص الدربة والدراية والدرس أوقع بطريقة عاجزة صبيانية قطعاً أحسها إحساساً طيباً . إذ ينبغى أن أقول – لأكون عادلاً فى الحكم على نفسى – إنى مشغوف بالموسيقى ، وإنى أدين لها بأنبل مشاعرى . ولكنى حين أجاهد آلتى يبدو علىَّ أننى لا أفهم شيئاً مما أعزفه ، على حين أن أودين مثلاً – وهو يصفر بالناى أيضاً – أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيِّل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان .

وخلاصة القول أنى شرعت أنفخ فى الناى ذلك المساء ، وبدأت بصفير خافت ثم صفرت ملء أنفاسى . فسمعت أمى تقول :

– حسناً تفعل يالويس ! اصفر قليلاً ، فقد بعد عهدك بالناى !

وكنت قد أضأت المصباح ، ووضعت كراستى الموسيقية على الخزانة ، مستندة إلى القارورة الزجاجية الزرقاء .

اجتهدت فى التوقيع وأنا أضغط شفتى بعناية وأضبط أنفاسى . أجتهدت فى أن أوقع أنغاماً جميلة ، فخيل إلىَّ أن جزءاً من عذابى فر من تحت أصابعى ، وذاب فى الجو مع رنين الآلة . أديت القطع التى أعرفها أحسن معرفة ، والتى ألفتها منذ عهد بعيد ، والتى امتزجت بجميع أفكارى .

وسرعان ما لاحظت أن المرأتين قد عادتا تتكلمان فى الحجرة المجاورة بصوت خفيض ، بعد أن صمتتا صمتاً طويلاً . فأحدث كلامهما غمغمة ضعيفـــة متصــلة . لم أستطع ألا أسمعها وأنا أوقع .

ومعلوم أنى عديم الموهبة ، ولكننى استأت ، وإن بدا لك هذا الاستياء مضحكاً . لم أسخط على أمى ، بل سخطت على الأخرى . أجل ، سخطت على مرجريت ، لأنها لم تتذوق تلك الأشياء الرائعة التى أوقعها هذا التوقيع الردىء ، والتى أوقعها – على الرغم من ذلك – لأجلها هى .

وعزوت سخطى في تلك اللحظة إلى العجز عن تقدير الفن والفنانين . على أنى يجب أن أعترف بأن كبريائى – بخاصة – قد تفاعلت فى ذلك السخط ، كما تفاعلت فيه مشاعر أخرى غامضة لم يحن الوقت للتحدث عنها ، ولكنى إذ أروى لك هذه التفاصيل كلها فإنما أفعل ذلك لأثبت لك أن لدى أسباباً لا تحصى تجعلنى عنيفاً فى الحكم على نفسى .

وضعت نايى ودخلت حجرة الطعام . وجلست أولا تجاه الموقدة ، ثم غيرت كرسى حتى لا أضطرَّ إلى أن أتأمل فى المرآة ذلك الوجه الذى يسوءنى كثيراً فى بعض الأحيان ، وجهى المسكين .

وارتفقت المائدة وصُدْغَاى بين راحتىَّ ، ولبثت كذلك لحظات طوالا ، أنظر إلى المرأتين وهما تعملان . وتمتمت مرجريت وعيناها لا تريمان عن عملها :

– ما أجمل ما وقعته الليلة !

فابتسمت ابتسامة مغتصبة وقلتُ :

– أجل ، إنه جميل ، ولكن توقيعى جد ردئ !

قالت وهى ترعش أجفانها أمام المصباح لتسلك الخيط فى الإبرة :

- أوه ، كلا ! ليس توقيعك رديئاً .

فشكرت لها هذه القطيرات من البلسم المسكوبة على كبريائى ، وشكرت لها بخاصة نبرتها وهى تلفظها . إنها كانت تستطيع - على كل حال - أن تسمع ما أوقعه وهى تجيب أمى التى كانت تحترمها احتراماً عظيماً .

وكانت مرجريت تخيط بسرعة عظيمة ، بغير أن تضل عينها أو تجمح أصابعها ، ولا شك أن حرصها على الإسراع هو الذى جعلها تتجنب التنفس من الأنف ، فكانت تتنفس من فمها ، وكثيراً ما كانت تستنشق مخاطها فى غير شدة . ومن العجيب أن ذلك لم يسؤنى . بل جعلت أنظر إلى أصابعها وهى تذهب وتجىء ، وإلى الظل الذى تلقيه على خدها خصلة شرود تلتوى أمام أذنها .

وسرى فىَّ فتور كسل دافئ ، وارتدَّت أحداث اليوم ووجوهه إلى ماض ملؤه التسامح : لويلييه ، ومكتب باروان ، وضابط الصف ، والبائع الذى لا رخصة له .

وأويت إلى مضجعى قبل أن تقوم الحائكتان بوقت طويل . وكانت أفكارى الأخيرة أفكاراً مطمئنة . لم يضع شىء : أربعة أشهر فى البطالة ليست بشىء . وما من رجل إلا حدث له ذلك مرة على الأقل . سيعود كل شيء إلى موضعه ، وستنسى أمى هذه الفترة المحزنة ، ولن تسىء مرجريت الظن بى .

ونمت على هذه الوسادة اللينة .....

واستيقظت فجأة فى جوف الليل وأنا أفكر فى لويلييه . لم أكن أحلم ، ولكن كل الأفكار التى خطرت ببالى كانت مصبوغة بتلك الصبغة الشاذة المشوهة المفزعة التى يضفيها تفكيرى الليلى على أهون الأشياء .

استرجعت كل ما قررته فى المساء قراراً قرارا . فبدت لى جميعها خلواً من العقل، وغدا الموقف مرة أخرى لا مخرج منه ، فلما نهضت من الفراش فى الصباح كنت أحس أنى أشد تعاسة وشقوة وإجراماً مما كنت فى أى وقت مضى .

على أن شيئاً واحداً ظل ثابتاً فى تفكيرى : لن أعود إلى مكتب باروان . سأنتظر ، سأبحث فى أمكنة أخرى ، سأعيش فترة على عمل أمى ، ولكنى لن أعود إلى هذا المكتب .

واطمأننت – وأنا أغمس قطعة من الخبز في القهوة – إلى هذه العقيدة المؤسة : « انظر ! أنت رجل بلا نخوة ، وروح بلا قوام ، وقلب بلا كبرياء ! هكذا أنت ! » .

كنت أفكر هذه الأفكار . كنت أفكر وحسب ، وإن كان تفكيرى عنيفا . وإذا بشيء يصعب تصديقه . إذا بشيء يشدهني ويفزعني . لقد قالت لى أمي فجأة بصوت مرتفع :

– لا لا ! لا ياولدى لويس !

ماذا ؟ لماذا « لا لا » ؟ أؤكد لك أنى لم أزد على أن فكرت ، بل أؤكد لك أنني لم أحرك شفتيّ .

وعندئذ أخذت أمي بيدى وجعلت تلاطفهما . وقالت لى قولاً طيباً حكيماً :

– إنك تضني نفسك بحثا . هذه فترة عصبية . انتظر حتى تسنح فرصة . لا شيء يعجلك . استرح واهدأ . زر أصدقاءك .

وأؤكد لك أنني ما فتحت فمي ، ولا بدرت مني أقل إشارة .

وكررت أمي وهي تقبل يدى :

– زر أصدقاءك .

* * *

أصدقائي ! ليس لى أصدقاء . نعم ! إن لى صديقاً واحداً ، وهو لانو . وليس « صديق واحد » كأصدقاء ، لقلب طموح .

ولى أقارب قليلون ، مبهمون ، بعداء . وأنت تعلم هذا النوع من الأقارب الذين يكاد المرء يخاف حين يسمع الحديث عنهم . آه ! لو كان لى أخ واحد ، أخ واحد طيب ! ماذا ! ولكنه لو لم يشبهني ما تفاهمنا ، ولو أشبهني ما احترمته ، وبعدُ فمن العبث أن أبتعث هذا الحلم ، فليس لى أخ .

ولنعد إلى ذكر الأصدقاء . هناك أولئك الذين أميل إلى إعزازهم ولا يستطيعون هم احتمالى ، وهناك أولئك الذين يبحثون عني راغبين ، ولكنني لا أطيق صحبتهم .

ولا تحسبنّ أنني امرؤه طلق اللسان لأني قد عزمت الليلة على أن أقص عليك قصتي . بل أنا صموت . أو على الأقل أن الظاهر - إذا كنت أحسن فهم مـــا يقال عني - هو أني صموت . ولا حظ أنني أحتاط كل الحيطة حين أعبر لك عن أفكاري ، فلا تظن أني من البلاهة بحيث أنسب إلى نفسي بعض الفضائل ، علـــى حـــين أني لا أحـــس إلا التقزز من نفسي .

ولماذا لا تعدني على الحقيقة أبله ؟ هذا أمر عسير التصديق : في عين اللحظة التي أتهم فيها نفسي تستعد كبريائي لتنقذ بضاعتها الحقيرة من الإفلاس . وكيف يكون المرء صادقاً أميناً وله هذا اللسان الذي لم يجعل إلا ليخون قلوبنا ؟

وبعد فليس من المحتَّم أن « كونَ المرء صموتاً » يدل على فضيلة من الفضائل . فالنساء اللائي يشوب جلودهن الكلف يتعزين بقولهن : « إني رقيقة الإهاب » . كذلك الرجال الذين هم على شاكلتي غفل من كل ذكاء وبديهةٌ وتألق يدارون عجزهم بقولهم «إني صموت » ، يعنون بذلك : « إن لي عقلاً رزيناً جادا يقظاً . أجل ، إن لي عقلاً عظيماً » .

والحق أني بفضل هذه الخليقة فيَّ ، حسبت أبله في كل بيئة عشت فيها . ومن المحزن ألا يكون العباقرة بلهاء في الوقت عينه . فهؤلاء الذين سألتهم أن يتأملوا ويدرسون بني جنسهم ينتقص ذكاؤهم وشهرتهم من قيمة محاولاتهم . وأعتقد أنهم دون غيرهم تمكنا من مفاجأة الطبيعة . فالأشخاص الذين هم موضوع دراستهم يجمدون إذا اقتربوا منهم ، ويتكلفون أوضاعاً خاصة كأنهم أمام رسام ، ويحاولون أن يظهروا لأول وهلة بمظهر يعلي قدرهم .

أما الأبله فلا جدوى من التكلف معه ، وهل يستحيي المرء أن يبدو عارياً أمام كلبه ؟ لو فهمت الكلاب والبلهاء ما نتركهم يرونه لوقذهم الحزن .

أما أنا الذي لأمارس ملاحظة الناس ، فأفضِّل أن أتجاهل الشرف المُّر الذي يضفي عليَّ بمعاملتي معاملة شاهد لا يؤبه له . ولو كان عليَّ أن أختار بين الخبرة المشئومة التي أكتسبها كل يوم على الرغم مني ، وبين الكذب الخلاب الذي لا يعني أحد بتقديمه إليَّ - لو كان عليَّ أن أختار لاخترت الكذب من غير شك . ولكني - ويا للأسف ! - ليس لي أن أرغب .

فأودين جارى القديم فى المكتب – وقد حدثتك عنه من قبل ببضع كـلمات – فتى متوسط الذكاء ، نورمندى فيه جفوة وحدة ، ونزق وعصبية ، فهو من طراز خاص ببنى جلدته . وله عينان خضراوان تميلان إلى الزرقة ، تضحكان آونة وتجمدان كالثلج آونة أخرى ؛ كما أن له جواباً كلسعة السوط .

آه ! هاك رجلاً كنت أود لو أحببته ! ولكن لم هذه الحاجة إلى التسلط ، ولم هذه الرغبة الشديدة التى تستحوذ عليه ، فى أن يضع الناس عند كـل مناسبة « فـى جيبه » ، بدلاً من أن يحملهم بطيبة فى قلبه ؟

إن كلامه أمر سريع ، قاطع كلما أراد . وهو لا يجيز المناقشة إلا إذا كانت لتأييد رأيه ، ولا يعرف تسامحاً ولا حسنى ، أف ! هذه أشياء كنت قميناً أن أغتفرها له ، ولكن أبعد الأشياء عن القبول ميله الظاهر إلى تغفّل غيره ، أى عادته من المجازفة ببلاهة رفيقه . فإن شعوره البدهىّ بغلبته علىّ فى المجادلة يجعله يستهين بقـهرى ، فلا يكفيه أن يهزمنى بل يتعجل ذلك ويريد أن يكون ثمنه عليه هيناً . وعباراته المصوغة فى قوالب من التأدب الغليظ ، محملةً بألوان من التعريض المهين والتلويح الجارح يظننى عاجزا عن إدراكها . وكذلك الأمر فى مكاتباته ، بل فى خلواته ، فهو يمثل لنفسه إن أعوزه المشاهدون .

والغريب أنى أستسلم لهذه التجارب فى قنوط آثم ، حتى حين يستطيع أودين أن يشك – وحين يتحتم عليه أن يشك – فى نجاح مناوراته . فأنا حينئذ أستشعر سروراً شنيعاً بأن أؤكد له أنى أبله ، وأن له أن يضاعف الجرعة ، وأن يعيد الكرة آمناً من العقاب ، وأن يغوص بقدميه فى ثقتى وأطمئنانى . فلا يقصِّرُ فى شى ء من ذلك .

ولو أنى كنت أضعف بصيرة ما سلك أودين معى غير هذا المسلك .

ولكنه كان من المستطاع أن يتاح لى صديق آخر ، أو – إن شئت – كان من المستطاع أن يتاح لى إنسان آخر أحبه .

لم أحدثك بشى ء عن بوبير . وجلىٌّ أنه موظف ببيت سوك وسيرو . فحين يكون للحصن أصدقاء لا يكونون إلا من رفاق القرن . وكذلك نحن : عسير علينا أن نعرف غير رفاق المكتب أو المصنع ، لأن حياتنا كلها تتقضّى فى العادة هناك .

وبوبير فتى من أهل الشمال ، نزلت به كل المصائب التى تخطر على البال ، فخانته امرأته ، وخانته صحته ، وخانته أسرته ، وخانته شجاعته ، وغدا كأنه إخصائى

فى نكد الطالع . وإنى لأجد من الطبيعى جدًا أن يستشعر لذلك نوعاً من الكبرياء ، لكن يشق علىَّ أن أفهم رغبته فى أن يجعلنى مسئولاً عن شقائه . وأعجب ما فى الأمر أنه يخاشننى أنا بخاصة ، أنا الذى لا أكف عن إظهار عطفى الصادق عليه ، والذى أسدى إليه بعض المعروف حين تسنح الفرصة .

وهناك دفرينى ، وهو باريسى قح ، ثرثار ، دموى ، أحمر الشعر ، أحمر المزاج ، لم يعرف أحد أنه جد فى حديثه مرة واحدة ، فهو لا يفكر إلا فى مضاجعة النساء ولا ينظر إلى صيْده ألبتة عن قرب . وليس دفرينى غبيًا ، ولكنه من أولئك الفتيان الذين لو خيروا بين صحبة فكتور هيجو وصحبة فريز بو بو خادمة حانة ماركية ، لفضل – بلاشك – صحبة الخادمة ، على ما فيها من أمراض . وأتوسل إليك ألا تظن أنى أقول هذا لأنى دفرينى تركنى أكثر من مائة مرة ونحن مصطحبان ليتعقب بعض الخادمات الصغيرات اللائى غشين على عقله ، ولن يزلن به حتى يخمد . فلنعدْ عن هذا ! فإن هذا الرجل يتبع هواه ، ويفعل ما بدا له .

وأستطيع أيضاً أن أذكر لك فيتيه ؛ وقد كان رفيقاً لى فى الجيش ، وكاد يصبح صديقى ؛ وقد ألحق بى فيتيه أذًى كثيراً . وأنا أقابله بانتظام منذ سبع سنوات ، أى منذ انقضت خدمتنا العسكرية ، فهو موظف في البريد ، يسافر مرتين كل أسبوع بين نيفير وباريس . فإذا اتفقت ساعات فراغنا جاء ليراني ، كلما بدا له أن يعذب أحداً ، أو أذهب أنا لا سأل عنه ، إذا شعرت بحاجة إلى العذاب ، وهو أمر يحدث لى بين الحين والحين ، كما يحدث للناس جميعاً ، مهما يكن الرأى فيه .

ولفيتيه خُلق لعين ولكنه مستو . إنه عنيف عنفاً رزيناً مستمراً . فإذا عذبك حماس فياض ، أو حفزتك رغبات شدادٌ ، أو أثارتك نيات طموح ، فاذهب لترى فيتيه ، وإنى لأستكثر عليه عشر دقائق حتى ينظف روحك ويطهر قلبك من كل أطماعك الحلوة ، ويخلفك أشد عراء وفقراً وحرماناً مما كنت فى أى وقت مضى .

ولو حضرتنى يوماً من الأيام فكرة فيها من القوة والحرارة ما يجعلها تصمد لساعة من فيتيه ، ما بقى لثقتى بنفسى حد . فيتيه ! إنه محطِّم ! وسلاحه المفضَّل كلمة تبدو لا شأن لها ، ولكنها أقطع من مشروط ، وأحدُّ من حمة . فإذا استسلمت إلى الرضى أو الأمل أو الحبور نظر إلىَّ فيتيه لحظة بعينيه اللتين يحيط بهما هُدْب أشقر ، ولا يزيد على أن يقول : « اجرِ ! » وإنى لأسائل نفسى أحياناً ألم تفسد هذه الكلمة حياتى كلها ؟

وعلى نقيض فيتيه لِديو . وهو موظف كان يجاورنى فى عملى الأول ببيت موتييه . ليس لديو بغيضاً دائما ولكنْ تنتابه نوبات . فهو فى فتراته الطيبة – التى تـــدوم أربعاً وعشرين ساعة أو ثمانياً وأربعين ساعة – كله لطف وصفاء وبراءة وتســـامح ؛ ثم تحتجب السماء فجأة ويظلم كل شى ء ، ويغدو لديو كئيباً شَكِساً ضيق العطن . إنه روح بائس قلق ، كتلك الأقطار التى تغمرها كل عام فيضانات مفاجئة ، والتى تحاول فى كل فترة بين فيضانين أن تعمر ما تخرب منها وتصلح ما فسد .

وإنى لأراه أحياناً خاشعاً متصدعاً فأذل نفسى أمامه حتى لا يبقى وحيداً فى تعاسته . وما إن أنال من نفسى واسقطها حتى يستغل لديو ذلك ليتعالى على ويصعد فوق ظهرى ويركلنى ، فلا أنال منه إلا الإحناق والتحطيم والغدر . ولو أنى كنت خيراً مما أنا لكنت أقنع بهذه النتيجة ، وأرضى بأنى نقلت إليه شيئاً من دمى . ولكنى لست على شى ء، وإنى لأسائل نفسى أليست نوبات تواضعى ناشئة هى الأخرى عن نوع من الغرور ؟

وبعد فلديو لا يستطيع أن يحتمل وحده أتراحه ولا أفراحه . فحين أراه قادماً إلىَّ أنظر فى وجهه لأحاول أن أحدس ما يفعم قلبه : أخيبة أم فوز ؟ ومع ذلك فهو إذا كان سعيداً أسرَّ إلىَّ : « إننى وفقت فى هذا الأمر أو ذاك » . أما إذا ارتكب حماقة أو غلبه ضعف أو صدر عن جبن ، فهو يصيح بمرارة ، « نحن أغبياء . نحن ضعفاء ، نحن جبناء » وى ! أليس لدىَّ من نفسى ما يكفينى ؟

وقد أستطيع أن أحدثك عن جاى ، الذى تكاد صحبته تقذنى ، جاى الذى تجعلنى غيبته الهادئة أنفر من جلٍّ من أعرفهم ، جاى الذى هو على الرغم من ذلك رجل طيب قدير على الولاء والحب .

وقد أستطيع أن أحدثك عن بِتْسر ، الذى كان رفيق صباى ، والذى أفسدته علىَّ زيجة مضحكة ، وقد أستطيع أن أحدثك عن كوى ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ لن أفلح إلا فى تأكيد رأيك السيئ الذى كوَّنته عنى منذ الآن . وعلى الرغم من كل شى ء أؤكد لك أن رغبتى الوحيدة هى أن أحب ، وأن أحب حبًّا كاملاً مطلقاً . فهل ذنبى أن عينى بصيرة ؟ ومن ذلك الأحمق الذى قال : إن الحب أعمى ؟

ولعلك تعترض عليّ بأن الناس ليسوا كلهم كلديو وجاى وفيتيه ودفرينى . آه ، مهلاً ! لست أدرى فذلك مبلغ علمى ، لقد كنت أعرف فتى يدرس طب الأسنان ، صحبنى يوما إلى مشرحته فى « كلامار » – ولعلك تعرف شارع فير آمولان . وكان الطلاب جميعاً مصطفين حول مناضد من الإردواز يقطّعون رءوساء بشرية ، ليتعلموا تشريح الوجه والغالب ألا تقدِّم إليهم رءوس كاملة ، فذلك يكون إسرافاً ، بل تنشر من الوسط رءوس حلِق من قبل شعرها كله ، من شارب ولحية وشعر رأس . وخلاصة القول أن أنصاف الرءوس هذه ، المصفوفة كالأوسمة ، والتى أذهبت الحوامض لونها ، وأرخاها الموت – أنصاف الرءوس هذه كانت متشابهة تشابها مخيفا .. إن ما رأيته هنالك كان الرسم البارز للإنسان .. القالب واحد تُصَبُّ فيه ملايين النسخ .

* * *

ولكن هل يكون لى أن أشكو والدىَّ لانو ، لانو الذى لا أعيب عليه إلا شيئاً واحداً ، هو أنه لا عيب فيه ؟ أو لا تعترف معى بأن هذه فضيلة تبعث على الضيق ؟

لقد سمعت نصيحة أمى وذهبت إلى لانو . وسَرَّت عنى هذه الزيارة بعض ما بى .. أتراها صائبة الرأى دائماً فى كل مايتعلق بى ؟

ومضت أيام كثيرة وأقبل شهر نوفمبر . وأحب ما يكون إلىَّ هذا الشهر حين يبدو الجو أكدر مضبباً ، والسماء مسفَّة معجلة لَهِجة كأنها قطيع من كلاب الصيد يتعقب فريسته .

وإذا كان الحظ يزدرينى عزمت ألا أتعقبه ، بل أترصد له . فتركت كل محاولة .

وقسَّمت وقتى أجزاء ثلاثة مختلفة . فقسم منها أقضيه جائلاً ، وقسم أمضيه عند لانو ، والقسم الثالث أقضيه فى المنزل ، ولم يكن لطوافى من هدف إلا نفسى . فكنت أرتاد شوارع جبل سنت جنفييف الصغيرة ، أو دروب لكسمبورج ، وخصوصاً فى الصباح حين تشبه الحديقة الموحشة جزيرة صامتة فى حضن المدينة المختلجة . ولكننى على معرفتى التامة بصور الأشجار ، وهيئة المناظر ، ووجوه الناس الذين يتنزهون فى ساعات معينة على الحشائش الذابلة ، ومعرفتى بمشيتهم ومقاصدهم ، كانت أفكارى مع ذلك كله تظل عاكفة على جو آخر ، ومناظر أخرى . كنت أبحث عن نفسى وأتتبع نفسى وسط ألف فكرة أشد هوجاً من قطيع من الجاموس فى عهد هجرته .

ثم أعود إلى شارع پوده فير ، فأستمرئ فى مسكننا هدوءاً يزداد عمقه كل يوم ، ولا أحسن تعليله . وكانت حجرة الطعام قد أصبحت أشبه شىء بمعمل حياكة ، وأمى التى مارست الخياطة من قبل كثيراً قد أقبلت على مهنة عاملة البيت . فكانت مرجريت تذهب فى البكور إلى المشغل ، تحمل إليه ما تم من عمل ، وتأتى بنسيج ونماذج ، وأمى تعد فى تلك الأثناء أطعمة النهار .

وكنت أجد المرأتين تعملان مهما تكن الساعة التى أقدم فيها . ولم أعد أخجل من بطالتى ، فقد أصبحت أمراً عادياً مسلماً به . بل إننى كنت أستشعر لذة غريبة إذ أرقب جهداً لا أشارك فيه أدنى مشاركة . وكانت تُشْعَل فى السهرات الطويلة نار ضئيلة فى الموقدة البروسية بحجرة الطعام .

وسرعان ما اعتدت أن آتى إلى هذه الحجرة لأقرأ .

وكنت أعالج الصفير فى الناى أحياناً، وأوقع بانتباه شديد متصل ؛ حتى تقدمت فى هذه الفترة تقدما محسوسا . وألقانى شعورى بهذا التقدم فى أحلام شرود : سأغدو موسيقيا ، وقد أصير ملحنا ، وتراءت لى حياة رائعة تتألق بالتوفيق ، وتزدهى بإعجاب الجماهير . وهأنذا أخيراً أطلق هذه الروح الأسير التى تنوى وتستسلم لليأس فى غور مكمنها .

وحتى توجد جماهير المستقبل كان يبدو من مرجريت على الأقل سرور بمحاولاتى . وكانت تذكر جيداً ألحانى المحببة ، وتدندنها وهى تسحب إبرتها ، وترجونى مرة بعد مرة أن أوقعها لها .

فرغت ذات يوم من أداء قطعة وقعتها بكثير من الصدق والعناية – لما أعوزتنى الموهبة – فرفعت إلىَّ مرجريت عينين شكراوين . فاضطربتُ لذلك ، وبخاصة أن كانت لمرجريت عينان جميلتان ذابلتان ، تضفى عليهما الدموع بريقاً مؤثراً يكاد يشبه بريق عيون الأطفال .

ولو كنت رجلاً عاقلاً لقلت لنفسى : « هذا تأثير الموسيقى فى روح حساس رقيق » ولكنى عزوت كل الفخر إلى نفسى ، وأمسكت قبعتى وأسرعت إلى الطريق وأنا أحس كبرياء يستحيل وصفها . لم يبق عندى شك فى أنى غدوت مالكا لقوى جديدة ، وشعرتُ بأن هذا التجاوب بين روحى وروح أخرى إرهاص مبين من إرهاصات القدر ، فتمتمت وأنا أصر بأسنانى : « أنا على الرغم من هذا كله شى ء ! شى ء ! وليَعلَمُنَّ أنى لست رجلاً كسائر الرجال » .

ياللطموح ! ياللجنون ! إننى لست رجلاً كسائر الرجال ! وهذه المهزلة كلها أصلها لحن بالناى ودموع مرجريت .

كانت الساعة حول الثالثة بعد الظهر . فهمت بضع لحظات من شارع إلى شارع حتى وجدت نفسى عند سفح كنيسة نوتردام ، وتمخض حماسى عن شى ء عجيب : وذاك أنى غصت فى سلم الأبراج وصعدت لم أتوقف حتى بلغت القمة ، وعجبت إذ وقفت هناك ولم أنقذف فى الفراغ من تلك الأنبوبة الحجرية الشاهقة ، كما تنبعث قذيفة من مدفع .

كانت ساعة مذكورة . كنت وحدى مع السحب والريح العاتية ، فلقيت سلاڤان وجها لوجه ، محرراً مخلصا من هذا الحشد من الأفكار الطفيلية القذرة التى يعيش بينها كنبات مهتضم ، وثقت بنفسى ساعة ، وأخذت على نفسى مواثيق ، واحتملت أعباء ، وأقدمت على تضحيات . وخلاصة القول إننى أنجزت أعمالا جديرة برجـــل حق . ولتعلم أننى فعلت ذلك كله فى قلبى .

ولو كتبت تاريخ حياتى لسميت هذه الساعة نصر خامس نوفمبر أو نصر نوتردام . فإنها كانت نصرا : نصراً صغيرا شعرت بآثاره أياماً كثيرة .

وكنت أحياناً أتناول كتاباً ،وأزايل أريكتى لأجلس على مقعد صغير ، فى ضوء السُّجُف اللبنى قبر الحائكتين . وأستغرق فى قراءتى فكأنى مستغرق فى نعاس متأشِّب .

وأنا – كما ترى – أقرب إلى الطول والنحول ، وقد قوست ظهرى مهنة الكاتب واحتقار الرياضة البدنية ، و« أقف بشىء من الميل » كما تقول أمى . وحين أقرأ وأنا جالس القرفصاء على كرسىٍّ الذى لا مسند له ، أحس أن كل نقص فى مظهرى العادى يزداد شناعة : فأنا أتداعى وأنكمش ، وكأن حياتى تهرب وتغادرنى لتذهب مع حياة أولئك الرجال والنساء الذين أشاطرهم بفكرى وقائعهم الغريبة ، وفى هذه الأثناء تيبس جثة سلاڤان شيئاً فشيئاً . ألا تعتقد أننا لو استطعنا أن نحلم فى قوة كافية ، لكانت صدمة جد صغيرة ، أو استسلام ثانية واحدة ، كافياً لنا فى مثل هذه اللحظات كى نموت ؟

وكان ينتشلنى من هذه الهوة عادة صوت أمى التى كانت كلماتها تصل إلىَّ وكأنها آتية من خلف حجب سميكة من اللبد ؛ فلا أصل إلى سطح الدنيا إلا بعد أن تناديني مرات عديدة . ولقد كنت أظن دائماً أنها تحدس بفطرتها هيمان روحى ، فكأن نداءها صرخة أنثى الحيوان التى تحس أن خطراً يتهدد صغارها .

على أن ما كانت تقوله آنذاك كان يسيراً جداً. فكانت – مثلا – تكلفنى أمراً ، فأضع الكتاب وقد بطل السحر ، وأصدعُ بما أمرت . وكنت قد أصبحت مطواعاً ، والطاعة – بهذه المناسبة – ليست من فضائلى الطبيعية . وأرجو ألا تعزو هذا التغير فى خلقى إلى الرغبة فى التكفير عن تبطلى ؛ فقد كان له دواع أخرى لا أشك أنك قد بدأت تفهمها .

وكانت أمى تطلب منى أحياناً أخرى أن أواصل جهرة ما كنت أقرؤه سراً . وقلما تغفل أمى أن تضيف :

– لعلك تعلمين أنه كان أيام تلمذته ، ينال دائماً جائزة المطالعة والمحفوظات . فأجيب باستحياء :

– ما هذا ياأماه ؟ اصمتى يا أماه ! لمذا تتحدثين عن هذه الأشياء ؟

إن أمى المسكينة لا تستطيع أن تعلم ذلك الارتباك الذى يوقعنا فيه ، نحن الرجال ، امتداحنا علانية لمهارتنا أو شجاعتنا أيام أن كنا صبياناً .

وتؤكد مرجريت من فورها ما قالته أمى :

– ما أحسن قراءتك !

فلا أنتظر مزيداً من الطلب ، وأقرأ ساعات كاملات ، والمرأتان تصغيان بغير أن تقطعا عملهما : ولكنهما تكتمان – جاهدتين – كل صوت . وربما تنشقت أمى قبصة صغيرة من النشوق ، تفعل ذلك محاذرة ، شبه مختلسة ، لأنها تعلم أنى أكره أن أراها تتنشق ، أنا الذى أدخن طوال النهار ، والذى أفسدتنى ألوان من الرذائل والنزغات ، وقبيح العادات .

وبين الحين والحين تكف إبرة مرجريت عن الرفيف فكأنها شعلة دقيقة زرقاء جبست فى رسن . وتصغى مرجريت ويداها فى حجرها ، وألمح فاها مفتوحاً وعينيها مثبتتين علىّ .

ولا أزل جتى أثمل من هذه الكلمات التى لم أقلها ولكنها تنحدر من شفتى ، ولا أوقن بعدُ أنى لم أفكر أنا نفسى فى هذه الأشياء الجميلة التى يعبر عنها صوتى . فإذا تمتمت مرجريت وقد بلغ منها الانفعال مبلغه ، « ما أجمل هذا ! ما أجمل هذا ! » تقبلت هذا الإطراء كأنه تكريم أستحقه .

وقليلاً ما كنت أكلم مرجريت فى العادة . على أن أمى اضطرت يوماً أن تغيب عن المنزل بعد الظهر ، فبقيت مع مرجريت وحدى ، وجلست فى حجرة الطعام وفق عادتى ، ولبثت ساعة وعيناى مثبتتان على الكتاب لا تريان شيئاً . أحسست جيشانا فى قلبى ، وارتعاشا فى يدى ، واستشعرت رغبة ملحة فى أن أتحدث إلى مرجريت ، وأقول لها قولاً رقيقاً . ولكن الأقوال الرقيقة شىء لا أحسنه ، فتركت العصر ينقضى بغير أن أفتح فمى واستبد بى اليأس حتى إذا أقبل المساء جرى لسانى بكلام مر متبط

موئس أجل ، ! إن لسانى لينطلق وحده إذا أردت أن أقول كلمات كريهة قاسية ، ولذلك لم ألق أى عناء فى إدخال الحزن والغم على قلب مرجريت ، وفى إرهاقها بسيل من كلمات كانت مناقضة كل المناقضة لما أحسست حاجة شديدة إلى مكاشفتها به .

استمعت بغير جواب ، ثم بدا فى نظرتها حزن وعتاب ، فنكست رأسى وسألتها العفو وأنا متلعثم . قالت :

– أوه ، لابأس . أنا أعلم أنك طيب ،

وأنك لاتعتقد كل ماقلته لى الآن .

– « طيب ! » أنا ؟ أنا طيب ! أنا ؟ آه ! جميل والله ! وسرعان ما تابعت الكلمات المرة مجراها ، حتى امتلأتُ تقززاً من نفسى ، فتناولت قبعتى وخرجت .

لا ينبغى التسرع فى الصفح عن سلاڤان .

* * *

ولكننى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت كثيراً فى هذه الفترة . أعتقد ذلك ، ولست واثقاً من شىء ، فالذين يسببون لنا أشد الآلام قلما يشعرون بقسوتهم ، ومن هؤلاء من يظنون أنهم غمرونى بإحسانهم وأراهم فى الحقيقة أرواحاً شريرة موكلة بى .

كانت لى فى أيام مراهقتى علقة بابن عم لى ، أحببته كثيراً. فكنت أجاريه فى محاولاته ، وأثنى على حسناته ، وأغضى عن سيئاته . ومهما حاسبت نفسى لم أجدنى أسأت إليه أية إساءة . ثم كان بيننا ذات يوم شجار ، ففتح لى ابن عمى قلبه ، واطلعت منه على أحقاد معمّرة ؛ أحقاد طويت زمناً طويلاً ، فلم يزدها ذلك إلا أواراً ؛ أحقاد رأيتها – واأسفاه ! – لا ترتكز علّى غير أساس . وخلاصة القول أنى اكتشفت فى ذلك القلب كنزاً من البغضاء وجدتنى أنا هدفه المحتوم ووجدتنى أنا سببه .

كيف يكون لنا أن نؤكد أنا لم نسبب أذى لإنسان نظرنا إليه ، ولو مرة واحدة ، ومررنا بحياته ، ولو فى التفكير ؟

أما الأمر الذى يجعلنى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت فى شهر نوفمبر هذا ، فهو أنى كنت أدخر كل تقلبات مزاجى للانو .

كنت أزوره كل يوم ، ولعلى ذكرت لك ذلك من قبل . فإما ذهبت إليه وقت الغداء ، وإما ذهبت إليه مساء بعد العشاء ، لأن لانو لم يفقد وظيفته مثلى ، وهو يذهب بانتظام إلى مكتب وكيل الدعاوى الذى يعمل عنده .

والغالب أن أجد لانو وزوجه يطعمان . فأجلس على كرسى هزاز قرب النافذة ، وأشرع فى الترجح ، كما أشرع فى البغى الفظيع .

ومن حسن الطالع أن لانو صديقى ! ومن حسن الطالع أنى أحبه ! فلو لم أكن أحبه لضقت به أشد الضيق .

ولولا الحب ولولا الصداقة لنفرنى من الإنسان كل شى ء . انظر إليه وهو يأكل ! انظر إليه وهو يشرب !

إن أكتاف لانو فتى هادئ ، بطى ء الاستجابة ، لا تعوزه الثقافة ولا الظرف ، ورث عن أبوته عادات ريفية ، وعَسَراً فى السلوك ، ولذا فقد يتفق لى أن أعاتبه معاتبة الصديق لصديقه ، ولكننى لا أطيق أن يقحم غيرى نفسه فى ذلك ، فالسخرية من لانو امتياز لى لأنى صديقه ، وهى امتياز أغار عليه غيرة شديدة .

كنت أستلقى على الكرسى الذى يهتز اهتزازاً ضعيفاً ، وقد وضعت ساقاً على ساق وأملت رأسى إلى الوراء ، وأدخنُ لفيفة بعد لفيفة وأنا أنظر بعين شبه مغمضة إلىّ لانو وزوجته وطفله وهم يأكلون .

وكان الصغير يبطبط فى صحفته ، وأكتاف ومارث يأكلان وهما جالسان وجهاً لوجه - ولا تظن أنهم كانوا يختلفون فى طريقة أكلهم عن غيرهم من الناس . أما أنا فما كان لى إلا أن ألاحظهم ، وهو موقف مؤلم لنا جميعاً .

إذا أردت أن ترعى هيبتك فإياك أن تأكل فى حضرة إنسان لا يشاطرك الجوع ولا الطعام .

لأى شى ء مَلْء الملعقة حتى يسقط جزء مما تحتويه على الصحفة قبل أن يبلغ الشفتين ؟ ولأى شى ء إمالة الملعقة ودسها فى الحنك ؟ ولم هذا الصوت المرتفع عند ارتشاف الحساء ؟

كان يشق علىّ التغلب على تقززى ، ولكن لانو وزوجه لم يكونا يرتابان فى شى ء . ألستُ صديقهما ؟ ألم أثبت لهما ذلك من قبل ؟ ألست أنا أيضاً إنساناً فى كل نقائص الإنسان ؟

كان تفكيرى فى أنى حين أشبع شهواتى أستصحب مثل هذه القذارة الساذجة ومثل هذا العسر - كان هذا التفكير يزيد ضيقى ولا يبدده . ولكننى كنت أضطر إلى الاعتراف بأن فكى أيضاً يطقطق حين أمضغ الطعام ، وبأنى - ولاشك - آكل أيضاً

وفمي مفتوح ، وأتمطق وأخضم ، ولابد أن عين الناظر ترى حركة لساني ، وتتتبع استحالة الطعام بجهد أسناني ، ولا شك أن أنفي – وكثيراً ما يسده الزكام – ينفخ ويصفر عندما يبدأ الفكان في العمل .

كان المنظر يكربني وأفكاري تخجلني ، فأنهض لأنصرف ، فينظر إليَّ لانو بعين صافية تتجلى فيها الدهشة ، ويقول لى باسطاً :

– لماذا ؟ لا شيء يعجلك .

فيفتر عزمي وأجلس .

ولو استطاع لانو أن يدهم مجرى أفكارى ، لوقعت فى اضطراب وحيرة . ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف مجرى أفكارى . على أننى أوشكت مائة مرة أن أفضح نفسي وأقول لصديقي : « أمن الضرورى إذن أن يحرك المرء أرنبة أنفه وهو يأكل اللوبياء ؟ » .

فإذا ماانتهى الطعام أشعل أكتاف غليونه الصغير ، وجعلنا نتسامر ونحن نحتسى القهوة ، فأرتجل بعض التعليقات المبهمة على أحداث اليوم . لكى أتخلص من تأملاتى الصارمة ، ويصغى إليَّ لانو بانتباه مجامل ، ويتمتم عند كل عبارة أقولها :

– إنى أوافقك تماماً على ماتراه .

فلا يلبث هذا الإصرار على الإقرار أن يضجرنى . ماذا ؟ إنى لأنطق بأكاذيب وتفاهات فيوافقنى لانو تماماً على ما أراه . لانو الذى أعده ذكياً ، صديقى لانو ، صديقى الوحيد !

ويبلغ بى الأمر أن أفتقد مرارة فيتيه الذى لا يدعنى أتم مقطعا إلا ويقذف بعبارة لاذعة ، كأن يقول : « أنا لا أقرك ألبتة على ما تراه » .

فأعود إلي صمتى وتأملي الشانئ الأليم . وأضع ركبتيَّ بين يديَّ وأسرع فى ترجيح الكرسيِّ الهزاز ؛ وكان تفكيرى فى أن هذا الترجيح المستمر قد يغثى نفس أكتاف ومارث يسبب لى شيئاً من الاضطراب ، ولكنه لا يمنعنى من المضيِّ فيه .

وإذ يشبع الطفل يرقد فى السرير . وهو جميل وعلى حظ كبير من القوة ، فى لحمة شفافية ولدونة ، ومن المؤسف أن خنصر يده اليسرى شاذ التركيب ولادة ، فهى مثنية نحو راحته .. إنك لتستطيع أن تفتش عن النقص فى الكائن الجميل ، فالنقص موجود دائماً ، ولو كنت كسلاقان لعجز بصرك يوما أن يرى غير هذا النقص ، ولأفسد عليك هذا النقص بعدئذ كل ما عداه .

وكنت أقبل الطفل – وأنا عرّابه – وأحمله على كتفى إلى غرفة النوم . وكنت أتخيل أحيانا – وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الحلو الذى لم تكد تتميز قسماته ، والذى يبدو كأن ملامحه كلها ما تزال مخبوءة فى جراب رقيق ، كنت أتخيل فيه وجه الشيخ الذى سيغدو إياه فى المستقبل ، فأحس الكآبة تنهشنى .

وينام الطفل ، فنعود إلى أحاديثنا التافهة وإلى تبغنا . وأصغى من خلال الباب نصف المفتوح إلى تنفس الطفل ، وإلى صيحاته وهو يحلم ، وإلى كل ما يصدر عن هذا الوجود الصغير النائم من صوت . وأحياناً كانت هذه الأصوات لا تبدو لى طبيعية، فيساورنى القلق ، ولكن لانو وزوجه يظلان هادئين ، فأقدّر أنهما عديما الإكتراث ، جامدا الإحساس ، غير جديرين بحمل الواجب الأبوى الثقيل .

وأحياناً أخرى كان لانو يخوض مع زوجه فى حديث طويل عن شئونهما الخاصة . وكل يقول : « أتسمح ؟ » فأجيب : « كيف لا ؟ » على أنى لا ألبث أن أجد كل هذه الأسئلة التى يثيرانها غريبة علىّ تماماً . فكثير من الأشياء فى حياة صديقى الوحيد كانت مغيّبة عنى ، وكثير من لانو كان مسلوباً منى . لقد كانت تعصر قلبى سورة الغيرة .

فى مثل هذه اللحظات كنت أفكر فى ألوان من الانتقام ، فكنت مستعداً كل الاستعداد أن أصب على لانو – إذا ترك لى أدنى فرصة – سيلاً من الفظائع التى كنت أجترها اجتراراً .

ويمضى الوقت وهو لا يقدم إلىّ سوى كلمات لطيفة ، فأزدرد غيظى . ثم أتخيل وأنا أهبط السلم بعد أن صافحت لانو وزوجه – أتخيل فى فزع أنه يقول لها :

– للّه دَرُّ سلاڤان ! ما أحسنه من فتى !

فأحنى رأسى ، ولا أشعر بكبرياء ، لأن كل هذه القبائح التى لا أملك ألاّ أراها فى صديقى ، كل هذه القبائح ليست فيه ، بل فىّ أنا ، فىّ أنا وحدى .

* * *

- ١٠ -

أصيبت مرجريت فى شهر ديسمبر بذبحة ألزمتها الفراش عشرة أيام متعاقبة . وكانت أمى تحمل إليها المرق والأشربة والدواء .

واختل نظام المنزل أيما اختلال ، فقد اجتمعت على أمى رعاية المريضة ونظافة المنزلين وإعداد الطعام ، وكانت مع ذلك تخصص بعض الوقت للحياكة ، ولكنها كانت تقتطعه من راحتها . وكنا نجلس إلى الطعام جنباً لجـنب ، ونأكـل مسرعـين . وكان يخيل إلىّ أن هوة عريضة تنفغر بيننا .

على أننا هكذا عشنا سنين طوالا ... وإذن فقد كان تعودنا شهرين اثنين عادات جديدة كافياً لأن يعطل عادات قديمة قدم الحياة .

وحاولت أن أغَنّى بعض الغناء ، وأصابتنى تلك المبادرة الطائشة التى يظهرها الرجال وسط المتاعب البيتية . فكنت أتنقل من حجرة إلى حجرة ، أجلس على مقعد ، وأتكئ على كل قطعة من الأثاث ، وأفتح الأبواب وأغلقها ، وأنقل الأشياء من أمكنتها بلا غرض . وكانت أمى ترفع منظارها بظفر سبابتها من حين إلى حين وتنظر إلىّ ، وعلىّ أن نظرتها كانت هادئة وطبيعية جدًا فقد كنت أشعر بالخجل وأحول رأسى ، وأتشاغل بشى ء لا يلبث أن تسأمه نفسى .

وعندما كانت أمى تذهب إلى مرجريت وبين أصابعها وعاء يتصاعد منه البخار - وكانت مرجريت كما ذكرت لك تعيش فى حجرة مجاورة لمسكننا - كنت أذهب إلى مسطح السلم وأسند الباب بقدمى وأنتظر وأنا أقرض أظفارى .

وتعود أمى فتقول :

- إن صحتها تتقدم .

فأجيب :

- آه ! حسناً ، حسناً !

وأردت أن أظهر قلة ! اكتراثى بالأمر ، فنجحت فى ذلك بعناء .

وزارها الطبيب مرة ، وكانت زيارته مطمئنة على وجه الإجمال ، فلم تكن حالة مرجريت خطرة ، وكتب الطبيب تذكرته عندنا ، وقال لى وهو ينصرف :

– لا تقلق ياسيدى ، فستشفى أختك بعد أسبوع .

ولم يخطر ببالى أن أفهم الطبيب حقيقة الأمر . فقد سرنى التفكير فى أنه كان يمكن أن تكون لى أخت كمرجريت ، وملأتنى هذه الفكرة بأشواق حزينة .

وفى ليلة مسهدة قضيتها كلها أحاسب نفسى ، لاحظت متعجباً أنى غيرت أياما أربعة لاتساورنى فكرة من تلك الأفكار النابية التى كانت تشوه روحــــى ، وتعذب حياتى . فشعرت لذلك بنشاط عظيم أبقانى يقظان حتى الفجر .

وجاءت المسرات تترى . ففى اليوم التالى قدم لانو إلى شارع بده فير ، وكنت قد تركت زيارته منذ مرضت مرجريت . وأحضر إلىّ فى ذلك اليوم عملاً : ملخصات قضائية مذيلة بالأحكام تكفل هو باستنساخها وفى نيته أن يجلب لى بعض النفع .

ولعلك لا تعرف « التذييل بالأحكام » فى عرف التقاضى . فإليك معناه : يضيف وكلاء الدعاوى إلى أوراق عملائهم خلاصات مكتوبة على ورق مدموغ ، تحصّل عليه ضريبة عالية ، وهدفهم من ذلك أن يزيدوا أجرهم . وقد جرت العادة بأن يوكل عمل هذه الملخصات إلى صغار الكتبة فيكتبوا بضع صفحات عن القضية التى حكم فيها ، ثم يستنسخون ما يتفق لهم من المدونة القانونية . أربعُ كلمات أو خمسٌ فى كل سطر عن الأمر المُلَهْوَج . تمحل بين . ويتفضل وكيل الدعاوى الذى يربح من ذلك ربحاً كبيراً ، فيدفع أجراً طيباً لقاء هذا العبث الذى ينجزه الكتبة فى غير ساعات عملهم . إنه أمر مضحك ، ولكنه هو الكائن .

وحَمَلَ إلىّ لانو مدوّنة ، وإضبارة من الأوراق . فشرعت فى العمل بهمة ، وعزمت على أن أقوم بحاجات المنزل ، وقد مرضت مرجريت ، وتكاثرت على أمى الأعباء .

فكنت أقضى النهار وشطراً من الليل أستنسخ بقلم محموم قانون إصابات العمل بحذافيره ، وكنت أعد سرا : ثمانية أفلس ، ستة عشر فلساً ، أربعة وعشرين فلساً . ووجدت فى ذلك العمل المضحك دوافع للفخر ، ودواعى كثيرة لتقدير النفس ، وكما قلتُ لك أحسست أنى أصبح إنساناً آخر . لقد غُير سلاقان .

أما التماس أسباب هذا التحول ، فقد حاذرته محاذرة فيها خوف وتطير وعددت هذا التعليق لقدرتى المؤسة على التحليل ، عددت هذه الهدنة وهذا السبات نعمة .

ولكنْ أتى يوم تجلى الأمر فيه دون أن أتجشم لذلك عناء .

كنتُ فى حجرة الطعام وقد شرعت فى الكتابة ؛ وكانت أصابعى الملوَّثة بالحبر تركض على الورق الأزرق ، وعْيناى تصاحبان أصابعى نشطتين ، ففتح الباب ، ودخلت أمى تدفع أمامها مرجريت .

كان عنق مرجريت ملفوفاً بسبيبة حريرية بيضاء ، وشعرها الجميل مضفوراً ، ووجهها يعلوه بعض الشحوب ، فبدت فى ذلك البَهَر الحلو الذى يختص به الناقهون .

جلستْ فى ركن المدفأة على كرسينا الكبير الموقر . وفى هذا اليوم وحده فهمت ما حدث لى .

* * *

هكذا أصبح لحياتى معنى . ألق إلى بالك . لقد أصبحت لحياتى وجهة ، فلم تبق مبددة كقطيع بغير قانون ، بل غدت مجتمعة موجهة . أصبحت نهراً ، ولم تبق مستنقعاً . أصبحت أغنية رصينة ، بعد أن كانت ضجيجاً متنافراً .

وبدا لى أن فى الدنيا أناساً تدور أفكارهم كلها حول قطب واحد لا تفارقه ، كما تدور الثعابين حول عصا الإله .

فى الدنيا أناس يعيشون فى حالة من الرضى ، وقلوبهم نقية تعتادها الأمانى الحلوة . فسأعيش أنا أيضاً فى حالة من الرضى .

فى الدنيا أناس يملكون العالم ، ولو كانوا فى حضيض الفقر ، فسأملك العالم ، سأملك نفسى آخر الأمر . لقد خَلُصتُ وأصبحت قادراً على الحب ، وكل شئ يثبت لى ذلك : التسامح فى الوجوه ، والضوء الخالص على الأشياء ، والانبعاثات والسكنات ، والثقة بالمستقبل ، والظمأ إلى التضحية ، وارتعاش يدى .

وصح عزمى ألا أبوح بهذا اليقين . ألا أخشى إذا اعترفت به وأذعته أن أغيره ، بل أمحوه ؟ ألا يحتاج إصلاح سلاقان أعواما طويلة ، ليألف نفسه ويألف ثراءه ، ويصبح جديراً بحظه الجديد ؟

ليكن هذا الحب الصامت سعادة أو شقاء .. فهذا شئ لم أفكر فيه قط . وكان ظنى أنى قد أبادل هذا الحب يزعزع أرسخ أفكارى ، فأفضل أن أنحيه . وعلى العكس

كنت أميل ميلاً شديداً إلى أن أتأمل الفكرة المضادة ، فما كان لينتقص من معنى الحب عندى أن يكون حباً منكوراً مزدرى ، بل إن السعادة التى كنت أتوق إليها كانت سعادة تتغذى بفيض من الآلام .

لا شك أنك ستضحك ،، فإن لديك عن الهناءة آراء معقولة محددة أعجز كل العجز عن دحضها ، بل عن فهمها . وأنا فى الحقيقة لا أدافع عن نفسى ولا أنتصر لقضيتى – وقد علمت ذلك من قبل – وإنما أحاول أن أمكنك من الاطلاع على ما كان يجرى فى باطنى . ثم إنى ليس فى نيتى أن أسهب فى هذا الجزء من قصتى ، وقد أستطيع أن أعبر عن أضطراباتى وسخافاتى وانحرافاتى ، أما السعادة .. ؟ أيمكن أن ترو بالسعادة ؟ أيمكن أن تثير أهتمام أحد من الناس بسعادتنا ، بهذا الشئ المضجر الذى يبدو لعيون غيرنا من الناس راكداً كل الركود ، تافهاً كل التفاهة ؟

حسبى أن أقول لك إننى كنت سعيداً بلا حذر . ولم يبق لى شىء من جلاء البصر لألاحظ أن أندفاعى شبيه بيأسى ، وأنه محموم مسرف أعسر مثله ، وأخيراً أنه كان يعوزه الاتساق .

وكان من العسير – حتى على المراقب اليقظ – أن يتبين نوع الانقلاب الذى يتم فى . فإن شيئًا من مظاهر وجودى لم يتغير ، وقد عادت مرجريت حين شفيت إلى مجلسها قرب أمى ، كان يسمع صوت آلة الخياطة وهى تدور ، وصوت قلمى من حين إلى حين إذا ينقر قعر المحبرة ، وكنا نتناول طعامنا مجتمعين فى المطبخ الممتلئ بالبخار والروائح الشذية .

وكانت عاطفتى تثقلنى ، وكنت أرمقها باضطراب وخجل ، وكأنه شىء هش يخشى المرء أن يحطمه وهو يحمله .

كنت أردد فى نفسى بين كل دقيقة وأخرى : « تنبهٌ ! فهاتيك الحياة الحقة تبدأ !» وأحياناً كان يستولى على القلق من مفاجآت المستقبل فآمل ، كما يأمل كثير ممن عزتهم السعادة ، ألا يكون الأبد كله سوى إشباع للحظة الرضى التى أنا فيها . وأحياناً كانت تعذبنى الأحلام الطامحة ، فأرانى أصعد نحو قمم الفضيلة ، نحو الكمال ، وروحى مجللة بالبركات نشوى بالغبطة الربانية، مخلصة مطهرة. أجل ، حياة قديس ، ! ولم لا ؟ ألم يُجْتَبَ السعداء من بين قطيع الخراف الجرباء ؟ وهل فى الفردوس مكان جدير بالملك الساقط الذى مسته على حين فجاة رحمة الله ؟

تلك كـانت أفكـارى وأنا أستنسخ – بقلم مترنح – قانون إصابات العمل مادة مادة .

وأحياناً كانت أمي ترجونى فى أمور صغيرة ، فأؤدى لها ما تطلبه فى عجلة كنت أود أن تكون أقل ظهوراً ، ولكن المرء لايستطيع أن يستحوذ على كل شئ : على الحبور وعلى امتلاك الأعصاب .

وأحياناً كانت مرجريت تغنى ، فأصاحبها بفكرى ، مراعياً أن يظل غنائى باطناً حتى لا يفتضح أمرى .

وكنت أتجنب النظر إلى مرجريت الحقيقية الحية ، ففى نفسى كنت أتأملها ، وفى نفسى كنت أتوجه إليها بدعاء صامت .

لا تبتسم ! لا تسخر منى ! فلو أننى حققت الحياة التى كنت أحلم بها لكان ذلك شيئاًجميلاً .

وكان يتفق لى أيضاً أن أفكر فى أصدقائى ، فى أولئك الرجال الذين سمعتنى أتحدث عنهم بعبارات الازدراء ، فكان أودين يبدو لى عندئذ شخصية ممتازة ، ونفسية عالية ، كان لها فى أثر طيب دائم . وكانت أحزن پوپير تبعث فى نفسى عطفاً لا تردد فيه ولا تحفظ ، لأعين هذا الرجل ، ولأواسينه، ولأردن إليه الهدوء والسعادة . وبدفرينى ! إنه الحياة نفسها ، إنه الصحة والقوة الفياضة ، ما أمرحه صاحباً ! وفيتية .. أية حكمة نصوح لم يعلمنى إياها ؟ لقد علمنى أن أؤدب غرورى ، وأن أتواضع فى تقدير فضائلى وقوتى . وقد قاسمنى لديو أفراحه فى كرم ، ولم يكن جاى قط غبياً كما ظننته – وإنه لظن أخزانى – ولكنه كان ذكياً نافذ البصيرة . وقد أسأت الحكم على إمرأة بتسر ، وأسأت تفسير أفعال كوى .

أما لانو أخى المحبوب وصديقى المجتبى وولى نعمتى فلم أك أستطيع التفكير فيه إلا بحنو واضطراب وندم .

وأخيراً كانت أفكارى ترتد دائماً إلى أمى وإلى مرجريت ، إلى تينك العزيزتين اللتين سأقضى بينهما حياتى الجديدة . فيا للنور الدافئ ويا للعطر ويا للموسيقى الناعمة !

كان ذلك كما ترى جميلاً ومؤثراً جداً . وهكذا دامت الحال بلا انقطاع من السابع عشر من ديسمبر إلى الخامس والعشرين منه .

خرجت يوم عيد الميلاد لأتغدى مع لانو ، وكان قد دعانى إلى وليمة صغيرة خاصة .

كان البرد جافاً لاذعاً منشطاً ، وكان المشى متعة ، ولو كانت نعلاك مثقوبتين . فزررت على معطفى البالى وخرجت مبكراً . ألا يزداد الغداء مع الصديق حلاوة حين يسبق بحديث طويل ؟

كان الطريق مألوفاً لدى ، وكانت أقدامى كأقدام الدوابّ المسرّحة تدب دائماً على آثارها المرسومة . إن باريس كبيرة ، ولكن لى فيها قريتى ، فأنا كأكثر الناس لابد لى من وطن صغير . ولقد يظن أولئك الذين يطوفون بالعالم أنهم تخلصوا من هذه العبودية، فهلا ترى أنهم محتاجون إلى أرتجال وطن لهم فى طبقة السفينة ، أو فى عربة القطار ؟ إنهم ليضطرون أحياناً أن يحملوا هذا الوطن المصغر فى حقيبتهم أو فى جيبهم ، أو فى نظرة رفيق عزيز .

يلذ لى أن أهبط فى شارع الكردينال ليموان ، فهو ينحدر إلى النهر وذراعاه مبسوطتان ، وهو يحملنى كرغبة تطلب الإشباع ، وهو مسرع كما تندفع قوى مركومة .

ثم السهل ، والأفق الممتد على نهر سين وأرصفته ، والمعبر الضيق ، والجزيرة ، وهذا الشاطئ الإقليمى الذى تنسى عليه باريس ضجيجها العنيف .

رأيت مرة أخرى كل هذه المناظر الحلوة بعينى رجل سعيد . فياليت هذه الصورة تبقى لى دائماً فى أيام البأساء !

وكان لانو قد خرج مبكراً لشسترى بعض الحُوَيْجات ولم يعد بعد . وكانت مارث مشغولة بإعداد وليمتنا الصغيرة ، فاستقبلتنى فى ثياب المنزل ، وهى قلنسوة من المخرّم وقميص قصير . ألا أُعَدّ فرداً من الأسرة ؟

وأمسك الصغير بيدى ليرينى الكنوز التى وجدت بمعجزة على المدفأة عند الفجر . وكان كل ما فى المسكن الضيق ينسم هذه السعادة العائلية التى كنت أحلم بها كأنها أرض محرّمة .

وشاقتنى إدارة اللعب الميكانيكية ، وتصنيف المكعبات الملوّنة ، ورعى الخراف الصنوبرية – شاقنى ذلك كله إلى الساعة الحادية عشرة . أما كيف نزل البلاء بعدئذ ، وكيف بدت أمارات انهيارى الباطنى، فذلك ما لا أستطيع أن أصفه لك على وجه الدقة . وربما كان سبب ذلك كله هو هذا القميص الكمين .. ما من شئ إلا يصلح عذراً للنفس غير الحصينة .

ومارث إنسانة جميلة ، سمراء ممكورة ، رزان فى مرح ، متحفظة وإن لم تكن مرتابة ، وهى زوج صديقى ، فلم تستهدف حتى ذلك اليوم لخيالى الجامح .

اتفق أن انحنت مارث عن المائدة لتصلح شيئاً فى الثريا ، ورفعت ذراعها ، وكان كم قميصها قصيراً هفهافاً فضفاضاً ، فاجتُذِب بصرى ذلك الكم وصعد على الذراع إلى ظلمة الإبط المبتل اللبد .

وفرغت مارث من شأنها وثنت ذراعها والتفتت وغادرت الحجرة .

أما أنا فكنت جالساً على الكرسى الهزاز أترجح وقد لففت ساقى ، وكان الطفل يلعب على البساط ، فلم يدرك أحد ما حدث .

سيدى ، أنت رجل ، فلستُ بحاجة أن أسهب لأشرح لك كنه الأفكار التى احتشوتنى ، ولا كنه الحادث الذى مر بروحى .

وحشيةٌ فظيعة . اغتصاب . هياج . هذيان . ثياب ممزقة ، توسل ونحيب . لاشىء بقادر على أن يصد العاصفة . لا الشرف ولا الصداقة .

كنت ثائراً مستبداً ، ثملا . ولم تخف على بصرى خافية من ذلك الجسم الذى بين يدى ، ولا من أفعالى .

وعبرت مارث الحجرة المجاورة . فكشف لى ضوء النافذة لحظة عن حدود جسمها الذى كاد يكون عارياً فى ثوبه الهفهاف . ضربة سوط أخرى . هياج جديد . ورفعت رأسى إلى السقف حيث صوّرت قصة من وحى الخيال الجموح : لقد سرقتُ هذه المرأة وحملتها إلى غرفة مظلمة عطرة فيها سرُر مشعثة ، تحت مصباح تسجسه تشنجات عصبية .

وبعد ذلك رحلة . الرحيل ! نستطيع أن نرحل ! حياة لاهثة لعينة رائعة ، عبر قارات مجهولة . أسيا ! أو جزائر المحيط ، أو أنتيل !

وكان الطفل قد بدأ يغنى عند قدمي وهو يهز ناقوساً . من الخشب . حسناً ، سيُترك الطفل للانو ! سيكون هذا الطفل عزاء لانو ، وسأكتب إليه كتاباً أوضح فيه كل شيء . وكتبتُ الكتاب من أوله إلى آخره على طلاء السقف الناعم الصقيل .

وتراءت لى قمرة فى سفينة ، لها نافذة مدهامة ، يصدعها أفق البحر ، وعناق يهتز مع رجه الآلات ، وينقلب مع اضطراب السفينة ، وأيد متشبثة بالمتراس ، أيد يشنجها الأسى ، وندم اثنين ، يسحق فى عناق مخيف .

ولكى أبين كل شيىء يجب أن أضيف أن ماخالجنى لم يكن يصدق عليه تماماً اسم الشهوة . فقد كان خيالاً من تلك الخيالات التى تشبع نفسها بنفسها . وما كنت لأجى بأدنى حركة لكى أحقق خواطرى المجنونة . كلا ، فهذه السورة كلها . طلت تتمرغ فى الروح ولم تكد تتصل بموضوعها . فحشٌ جبان ، متستر ، منعزل .

.. أوشكت أن أتم كتابى إلى لانو ، وإذ بنقش من تلك النقوش المبهمة الزائدة التى تطفو كالثبج وتتتابع كالموج على إطار السقف – إذ بهذاالنقش يغدو فى غفلة منى تلك الخصلة الشقراء الجميلة التى تنوس وتتلوى أمام أذن مرجريت حين تخيط منحنية على عملها ، وبدا وجه مرجريت الحلو كله على السقف ، وله تلك النظرة التى تستغنى بها أن تتمتم « أوه إننى أعلم أنك طيب » .

حسنا ، ستنسى مرجريت .

مرجريت ! أبهذه السرعة . . ؟ ووقف حلمى لاهثاً كالجواد المنهوك إذا عثر وكاد يكبو ، وغاص من الحلم كل ما كان فيه من حرارة وحياة .

وعندئذ رَنّ صوت مارث ، وإخالنى أذكر أنها قالت عبارة من أيسر العبارات :

– لقد تأخر عنك أكتاف . سوف يسوءه ذلك :

فغاصت الصور جميعاً فى سحابة غبراء ، وأحسستُ ارتعادا وتعابً وحزناً ، كمن خنق أوهامه على أريكة فندق : ضعف فى الساقين ، ودوار فى الرأس ، وتهافت فى القلب ، وفوق ذلك كله رغبة عنيفة فى البكاء والأنين .

ونهضت ، وذهبت إلى الردهة ، وتناولت معطفى ، فقالت مرجريت وقد ظهرت على عتبة المطبخ :

ماذا تفعل ، هل نسيت شيئاً ؟

– أجل ، نسيت ... نسيت ....

ووجدتُ نغمة صوتي جديرة بالرثاء ، فلم أزد حرفا ، وفتحت الباب وانطلقت أهبط الدرج . وما زلت أذكر وجه مارث وقد شاع فيه التعجب وهي تتقدم في القمة وتنحني على حاجز السلم .

ولما وصلت إلى الطبقة الأولى وجدتني وجهاً لوجه مع لانو . وعلت وجه – وهو يمد إلى يده – بسمة حلوة رقيقة ، فقلت له وأنا أتحاشاه :

– ياأكتاف ، معذرة ، فلن أبقى معك . أنا لا أستحق البقاء . أنا لا أستحق أن يهتم بي أحد .

وقف لانو مذهولاً ، وكدتُ أوقعه وأنا أحاول الإسراع لأخرج من المنزل ، وهبطتُ الدرجات الأخيرة قفزاً وأنا أصيح :

– لا لا يا أكتاف ، يجب ألا تحبني !

وبينما كنت أرد باب الدهليز سمعت على الدرج من خلفي وقع خطى مسرعة . وكان لانو ينادي بصوت متغيرٍ :

– لويس ! لويس ! اسمع يالويس ..

وكنت قد بلغت الشارع فمضيت في طريقي بغير أن ألتفت .

* * *

لاينبغي للمرء أن يُسَرّ ، فزوال السرور عذاب شديد . كان الوقت ظهراً ، وبدت الحديقة النباتية مقفرة .. أرض جاسية تصرُّ من البرد ، ومقاعد يغشيها الصقيع . ولكني جلست على أحد هذه المقاعد ، وكانت على يميني شجرة مدت أذرعها جميعاً ، وكأنها تحلف يميناً في جلال ووقار .

نظرت إلى جذعها الأعجر ، وإلى أفنانها التي لا تحصى ، وإلى جذورها الضخمة التي تبرز وهي في مكانها قبل أن تغوص إلى غير رجعة ، فكأنها فقار الدُّخَس ، وفكّرت :

– هذه الشجرة غير مقيدة الإرادة ، فهي تستنبط الأرض حيث تجد مقداراً معيناً من العصارات ، أو مقداراً معيناً من الخلاصات ، أو مقداراً معيناً من الأغذية أو السموم ، أو مقدار معيناً من المواد المتراكمة منذ بدء الخليقة ، وهي تستنبط ولا تأخذ إلا ما تحتاج ، أما سواه فتنبذه ، إنها تنتقي ما ترغبه من بين هذا الخليط .

أما أنا فمقيد الإرادة .. فكل فكرة هائجة تجد فى روحى المأوى . وكل بذرة تسقط على وجودى تستطيع أن تنبت . فأين أنا ثمة ؟ أين أنا بين هذا الحشد ؟ أيمكن أن أحظى بشئ من الهناءة بين هذا الرهط من الشياطين التى تناصبنى العداء ؟ كيف أعرف نفسى أو أسميها أو أناديها من بين هذه الوجوه كلها ؟

لا تقل لى : « إن هذه الأفكار عندك ولكنها ليست إياك » ماذا ؟ ألست أنا الذى أفكر ؟ ألست أنا الذى أغذوه هذه الأفكار ؟

ولا تقل لى بخاصة : « إن هذا كله لا يعيش إلا فى عقلك » إذلا أهمية إلا لما يجرى فى العقل .

ما كنت لأجعل من حياتى شيئاً طاهراً نقياً .

إننى عاجز عن الحب ، عاجز عن الصداقة ، إلا أن يكون الحب والصداقة عاطفتين تافهتين حقيرتين .

أنا أبن عاق ، وصديق خائن ، ومحب غادر ، فى أعماق قلبى تمنيت موت أمى ، وخنت أكتاف وأخزيته ، واغتصبت مارث ودنستها ، وغدرت بمرجريت . وفعلت ألف جريمة أخرى ، أنمحت من ذهنى حتى ذكراها ، وهذا أشد الأمور إقناطا .

أنا لا أوقِّر شيئاً من أعماق قلبى ، وعلى الرغم من ذلك ... !

وعلى الرغم من ذلك كنت أحلم أحياناً بحياة لو عشتها لكانت أجمل حياة وأنبلها : ولستُ مذنباً ، فما أنا بالسيد المطاع .. لا تتهمنى قبل أن تراجع نفسك .

أنا عبد قن ، فمن يمنحنى الحرية ؟ من ينقذنى من الهوان ؟ من يستطيع أن يردّ علىّ كرامتى المفقودة ؟

إن العالم يروغ منى ، فأضطرب بين الأشباح . فمن يستطيع أن يتقدم لينقذنى ؟

هكذا كنت أفكر وأنا جالس على مقعد حديقة النباتات . وكنت مقروراً ، وسرعان ما أحسست جوعاً ، ولست أخلو من مرارة إذا أقرر أنى أستطعت أن أحس البرد والجوع على الرغم من ألمى ... هذا جرح جديد للكبرياء .

حاربت البرد بالسير ، والجوع برغيف من تلك الأرغفة الصغيرة المرصعة بالزبيب برغيف من أرغفة الجويدار الصغيرة التى كانت متعة صباى .

وكـذلك همت طوراً أجـوس في دروب الحـديقـة ، وطوراً أضـرب في الشـوارع المجـاورة ، حـتى مـال ميزان النهار وغُمّت الشـمس ، فمـا بدت لي قط أشـد ضـغناً ولا نحساً . وكان ذلك وهـمـا خـالصاً ، فلقد عرفت من بلايا العرق تحت لازورد يـولية ما تقصر عن شأوة بليات الشتاء .. لا شمس إلا في سلام القلب .

أين أذهب ؟

احلو لك الليل ، وبدأ الثلج يتساقط ، وكنت إذ ذاك في شـارع بيفون ، فعدت إلى سطح الدنيا لحظة لأقرر لنفسـي أن الثلج يتساقط ، ثم غصت ثانية إلى الأعماق .

وبعد ربهة وجدتني محـاذياً خفر البلدية بشـارع مـونج ، ميممًا شارع پوده فير . كان الوحش يعود إلى مثواه . كان يعود وحده إلى المأوى ، حيث الدفء والطعام .

كل شئ كما كان . كل شئ علي وتيره واحدة . خروج فإياب . فإلى المنزل بحمل من الغضب والأشمئزاز .

- ١٢ -

سيدى ، لقد جاوز الليل على منتصفه ، واستمعت إلى حتى الآن بكثير من الصبر والكرم ، فلا سرف على رحمتك ، ولأفرغ من قصتى .

انقضت سبعة أيام منذ تلك الأحداث التى ارتبطت ، عندى ، بيوم عيد الميلاد ، وإنى لأستمحيك العذر مرة أخرى ، إذ أصر على تسمية هذه الأشياء التى لم تتجاوز حدود نفسى بالأحداث ، فللعالم تاريخان : تاريخ أعمالنا وهو ذلك الذى ينقش على البرنز ، وتاريخ أفكارنا وهو ذلك الذى لا يبدو أن أحداً يعنى به . وإن شئت الحقيقة فما قيمة أفعالى إذا لم تكن أفكارى إلا نكثا لها ، وسخرية منها ؟

قضيت الأيام الأربعة الأولى فى قلق متزايد ، وكان المقام فى المنزل يؤلمنى ، لأسباب يسهل عليك حدسها .. كثرة الذكريات ، ونظرة تينك المرآتين ، ومين وجهى وكلامى وحركاتى .

فكنت أخرج صباح كل يوم ولا أعود إلا بعد أن يتقدم الليل ، ويحين وقت النوم . وكانت أمى تقول كل مساء إن لانو أتى وانتظرنى ساعة أو ساعتين بغير أن يوضح غرضه من الزيارة .

وكنت أقضى الليل على أريكتى أدخن وأحارب شياطينى .

وفى صباح أمس الأول جرى بينى وبين أمى حديث قاطع . أكان ذلك حديثاً ؟ الحق أن أمى تكلمت وحدها .

كنت موشكاً أن أخرج ، وكانت مرجريت قد خرجت لتحضر من المشغل عملاً ، وأمى ترتب المسكن ، فقالت .

– لويس ؛ أجلس لحظة بجانبى .

وجلست . ولابد أن وجهى كان مغلقاً شاحباً تعروه التواءات صغيرة غير إرادية لا أستطيع كبحها . لقد كنت قلقاً مضنى فى وقت معا . قالت لى أمى :

– لويس ؛ ستبلغ الثلاثين بعد شهرين .

ففهمت لتوى . وتكلمت أمى نصف ساعة . لقد آن أن أتزوج . يجب ألا أتأخر فى الحصول على عمل . إن أمى كانت مشغولة بهذا الأمر أيضًا . لقد آن لى أن أختار رفيقاً . أليس على مقربة منى ...

آه ! يا أمى ؛ يا أمى ؛ ما أشد حبك لى ! وما أحسن معرفتك بى ! وما أسوأ فهمك لى !

تركتها تتكلم . وكانت تهز يدىّ برفق ، فتسقطان لاحراك بهما . فإذا ألحت على بالأسئلة هززت رأسى ولم أجب .

ودق الجرس فأنجدنى ، ودخلت مرجريت ، وسرعان ما تناولت ملابسى وخرجت مبتدراً الباب ، وأنا أنظر فى عبورى - بشئ من الغيظ - إلى تلك الفتاة التى تحلم بأن تهب السعادة لرجل مثلى .

وقد مضى على ذلك أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، ولم أعد إلى المنزل ، ولن أعود إليه ، فما بقيت لدى قدرة على أن أعود .

كتبت لأمى كتاباً لا يوضح شيئا . كيف توضح مثل هذه الأشياء ! كتبت إليها : «أمى ؛ أنت لاتعلمين أى رجل أنا ، فلا تسألينى أن أعود إليك ، ولا تطلبى منى أن أكون سعيداً» وأشياء أخرى كثيرة تافهة كهذه، كانت ولاشك عذاباً ، ولم توضح شيئاً .

وهاقد كادت تمضى على ثلاثة أيام وأنا أهيم فى باريس بلا غاية ولا مأوى . لقد هدأت نفسى ، ولكن تعاستى شديدة .

لست أبحث عن الموت . فإنى لم أستعد بعد للموت .

ولدىّ نقود تكفينى يومين ، ثم أعملُ أعمالا تافهة لأجد طعاما .

لا تحدثنى عن تينك المرأتين ، اللتين أظنهما جالستين الآن فى حجرة الطعام تخيطان . فيم تفكران ؟ ماذا تقولان ؟ لا تحدثنى عن ذلك ، فلقد سئمت التفكير فيه طوال هذه الأيام الثلاثة .

إن القدر ساقنى الليلة إلى هذه الحانة ، حيث عَنّ لى أن أقابلك .

ولم أشرب من الخمر إلا قليلاً ، ولا شك أنك لاحظت ذلك ، وكنت أود لو أكثرت من الشراب ، غير أن معدتى مريضة .

لا ترو لأحدٍ هذه القصة التى ليست بقصة . فكل إنسان يحمل عبئه من العذاب ، وعبث أن تثقل عليهم بقصة سلافان ، وعبث كذلك أن تضحكهم منها .

لست أدرى ماذا أفعل من بعد ، ولا ماذا أصير . قد أرحل إن عطفت علىّ الريح وحملتنى ، وقد أبقى . ربما ....

أنت ياسيدى، يامن تبدو سمحاً طيباً ، ويامن تركتنى بهذا الرفق العظيم أتكلم .. لعلك تدلنى على ما ينبغى أن أفعل .